



تصدر أربع مرات في السنة
عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب



عالم الفكر

العدد 4 المجلد 32 أبريل - يوليو 2004

تم التنضيد والإخراج والتنفيذ
بوحدة الإنتاج في المجلس الوطني
للثقافة والفنون والآداب
الكويت





سعر النسخة

الكويت ودول الخليج العربي	دينار كويتي
الدول العربية	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	أربعة دولارات أمريكية

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	6 د.ك
للمؤسسات	12 د.ك

دول الخليج

للأفراد	8 د.ك
للمؤسسات	16 د.ك

الدول العربية

للأفراد	10 دولارات أمريكية
للمؤسسات	20 دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	20 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	40 دولارا أمريكيا

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب مع مراعاة سداد عمولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص. ب: 23996 -الصفاة- الرمز البريدي 13100
دولة الكويت

شارك في هذا العدد

- د. محمد جابر الأنصاري
- د. سلمان أبوستة
- د. محمد علي الفرا
- د. مصطفى أحمد تركي
- د. وجيه كوثراني
- د. ناصر الدين سعيدوني
- د. عطية العقاد
- أ. محمد الداهي
- د. جمال مقابلة

قواعد النشر بالمجلة

ترحب المجلة بمشاركة الكتاب المتخصصين وتقبل للنشر الدراسات والبحوث المتعمقة وفقا للقواعد التالية:

1 ـ أن يكون البحث مبتكرا أصيلا ولم يسبق نشره.

2 ـ أن يتبع البحث الأصول العلمية المتعارف عليها وبخاصة فيما يتعلق بالتوثيق والمصادر، مع إلحاق كشف المصادر والمراجع في نهاية البحث وتزويده بالصور والخرائط والرسوم اللازمة.

3 ـ يتراوح طول البحث أو الدراسة ما بين ١٢ ألف كلمة و١٦ ألف كلمة.

4 ـ تقبل المواد المقدمة للنشر من نسختين على الآلة الطابعة بالإضافة إلى القرص المرن، ولا ترد الأصول إلى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر.

5 ـ تخضع المواد المقدمة للنشر للتحكيم العلمي على نحو سري.

6 ـ البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات أو إضافات إليها تعاد إلى أصحابها لإجراء التعديلات المطلوبة قبل نشرها.

7 ـ تقدم المجلة مكافأة مالية عن البحوث والدراسات التي تقبل للنشر، وذلك وفقا لقواعد المكافآت الخاصة بالمجلة.

■ المواد المنشورة في هذه المجلة تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس

■ ترسل البحوث والدراسات باسم الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص. ب: 23996 ـ الصفاة ـ الرمز البريدي 13100 دولة الكويت

البريد الإلكتروني: Elfikr@nccal.org.kw

المحتـــــوى

نزاعات الحدود والحروب الأهلية

آفاق نقدية


العدد 4 المجلد 32 أبريل - يونيو 2004

المسألة البربرية في الجزائر
دراسة للحدود الإثنية للمسألة المغاربية

د. ناصر الدين سعيدوني(*)

تطرح المسألة البربرية في الجزائر اليوم - سواء في المجال الثقافي والاجتماعي وحتى الفكري والسياسي- عدة تساؤلات تتجاوز واقع الجزائر الحالي وتتعدى أوضاع المغرب العربي إلى ما يهم مستقبل الوطن العربي، لما لهذه المسألة من انعكاس على أوضاع البلاد العربية المتأزمة وخاصة ما يتصل منها بالتعامل مع الثقافات المحلية وتحديد دورها ومكانتها في المناخ الحضاري العربي الإسلامي.

وهذا ما يجعل معالجتنا لهذه المسألة تنطلق من الفهم الذاتي والقناعة الحضارية والنظرة المحايدة لواقع الشعب الجزائري، لأنها في نظرنا تعبر عن تعامل الذات الجزائرية مع نفسها وتفهمها للموروث التاريخي، وتحليلها للعوامل الداخلية والأسباب الخارجية التي ساهمت في بلورته وجعله واقعا معيشا يتأثر به الفرد الجزائري ويتعامل معه، بعيدا عن الميل الطائفي الجهوي، وانطلاقا من النظرة الشاملة المتفهمة للواقع الثقافي الذي يصبح فيه الاختلاف حيوية والتمايز مساهمة والخصوصية إثراء وعطاء وتعدد القافات المحلية عنصر إغناء فكري وتنوع ثقافي وليس عامل فرقة وتشتت وتمزق. وبذلك فقط يمكن فهم المسألة البربرية والتعامل معها باعتبارها إحدى القضايا التي يعيشها الشعب الجزائري ووضعها في مكانها من الحركية الاجتماعية والتفاعل الثقافي للجزائر المعاصرة.

وبهذا الطرح للمسألة البربرية نتجاوز المواقف السياسية والقناعات الأيديولوجية لدعاة «المسألة البربرية»، إلى عرض تاريخي لا يأخذ في الاعتبار سوى الواقع الثقافي والاجتماعي للجزائر، ولا يتوقف عند انعكاسات «المسألة البربرية» في الساحة الجزائرية، وإنما يتجاوزها

(*) أستاذ التاريخ الحديث بجامعتي الكويت والجزائر.

إلى تلك المنطلقات التي أسست لها والأفكار التي دعت إليها، والتي ارتبطت بالمشروع الاستعماري الفرنسي في الجزائر في سعيه الدؤوب لضرب وحدة الشعب الجزائري وتدمير الأسس التي تقوم عليها هويته العربية الإسلامية.

من هذا التوجه في المعالجة وهذا المفهوم للموروث الثقافي، يمكن أن نحدد أبعاد إشكالية المسألة البربرية من حيث منطلقاتها في الماضي وواقعها الحالي وآفاقها المستقبلية في هذه التساؤلات: هل أن المسألة البربرية كما تطرح اليوم نتاج حركية التاريخ الجزائري، أم أنها إحدى إفرازات السياسة الفرنسية في الجزائر؛ وهل أن هذه «المسألة البربرية»، من حيث الأفكار التي تحملها، قضية تخص الناطقين بالبربريات أم أنها تعبير عن تيقظ قومي قائم على التمايز الإثني والخصوصية الثقافية للنخبة المستلبة والمتغربة والتي أفرزها الواقع الاستعماري الفرنسي وخاصة في منطقة بلاد القبائل، حيث تركزت عملية التبشير والفرنسة؟ أم أنها مجرد تعبير عن تأزم المناخ السياسي والثقافي وانسداد الوضع الاجتماعي والاقتصادي نتيجة فشل المشروع الوطني الجزائري في تجاوز الموروث الاستعماري وعجزه وتقاعسه بعد الاستقلال عن ترميم الهوية الحضارية للشعب الجزائري.

وانطلاقا من هذه الإشكالية سوف نعالج «المسألة البربرية» في الجزائر باعتبارها موروثا ثقافيا ارتبط بالاستعمار الفرنسي، وواقعا معيشا أفرزته تجربة الحكم الوطني، وتعبيرا سياسيا عن قناعة أيديولوجية ومفهوم ثقافي، وهذا ما يدفعنا في هذه المعالجة إلى تجاوز العرض التاريخي المبسط والمقاربة الصحفية المعبرة عن موقف سياسي أو قناعة أيديولوجية، والابتعاد عن التعميمات والأحكام الجاهزة وتكرار ما كتب حول هذه المسألة. وهذا ما يفرض علينا كذلك التنبيه، في مستهل هذه الدراسة، إلى أننا لم نأخذ باصطلاح «الأمازيجية»، وإنما استعملنا تعبير «البربرية» لأصالته التاريخية، ولكون مصطلح الأمازيجية كلمة موضوعة لغرض سياسي أيديولوجي قائم على مغالطة لفظية تحاول التستر على الأصول الأولى لهذه المسألة وتهدف إلى تجاوز الخاص إلى العام، بحيث تكتسي قناعات النخبة الداعية لها شكل مطالب مشتركة وطموحات مشروعة لمختلف الجهات التي توجد بها المجموعات الناطقة بالبربرية.

كما يتعين علينا كذلك التأكيد أن دراستنا للمسألة البربرية في منطلقاتها وتطورها التاريخي يظل محصورا في المجموعة المؤمنة بها والمتعصبة لها والتي يكاد أغلب أفرادها ينتمون إلى النخبة الفرانكوفونية ببلاد القبائل[1]؛ وهذا ما يبعد سكان «بلاد القبائل» عن أي موقف جهوي وإحساس طائفي معاد للعروبة والإسلام، فالقبائل عبر تاريخهم ومن خلال مواقفهم جزء لا يتجزأ من المجموعة الوطنية الجزائرية، لا يختلفون في شيء في قناعاتهم وميولهم ولا يقلون شأنا في إسهامهم وعملهم لتعزيز الهوية الجزائرية وصيانة الوحدة الوطنية والتمسك والاعتزاز بها.

انطلاقا من كل ذلك سوف نستعرض الأدبيات المؤسسة للمسألة البربرية، ونعرف بالنخبة البربرية بالجزائر وتأثيراتها في الواقع الجزائري (١٩٤٨ - ٢٠٠٣)، ونأمل أن يجد القارئ العربي في هذه الدراسة ما يسمح له بتكوين فكرة محددة ورأي صريح في المسألة البربرية من حيث منطلقاتها وتطوراتها وتأثيراتها على الواقع الجزائري.

أ - التأسيس للمسألة البربرية في الجزائر (١٨٣٠ - ١٩١٩)

تتدرج الفكرة المؤسسة للمسألة البربرية في الجزائر ضمن المخطط الاستعماري الفرنسي في الجزائر القائم على تحقيق هدف استراتيجي يتمثل في العمل على إلغاء الوجود التاريخي للشعب الجزائري، من حيث أسسه المادية ومقوماته الحضارية[2]، وقد تحددت معالم هذا المشروع الاستعماري الذي يستهدف البنية الاجتماعية والحضارية في فكرة تقسيم سكان الجزائر وتصنيفهم إلى بربر وعرب، لتوفير الشروط الملائمة لبقاء فرنسا في الجزائر ولتهيئة الظروف في حالة انتهاء السيادة الفرنسية لتكوين كيانات محلية قائمة على التمايز اللغوي والخصوصية الإثنية.

لقد وجد مخططو السياسة الاستعمارية بالجزائر في المناطق التي مازال سكانها يستعملون لهجاتهم البربرية مثل الأوراس وميزاب والهوقار والقبائل ما يرونه شروطا أولية ووضعية ملائمة لتحقيق ما يطمحون إليه[3]، وقد تركز اهتمامهم في ذلك على منطقة القبائل، لأنها حسب مفهومهم أكثرها تقبلا وتأثيرا على باقي أقاليم الجزائر، فهي منطقة قريبة من مدينة الجزائر عاصمة القطر الجزائري وبيئة كثيفة السكان صعبة التضاريس محدودة الموارد لا تتقبل الاستيطان الأوروبي الواسع ولا تسمح بالاستغلال الاقتصادي الرأسمالي، فضلا عن كونها إقليما يتميز بخصائصه من حيث لغة السكان وعاداتهم وتقاليدهم الخاصة التي جعلت الفرد القبائلي - في نظرهم - يتمسك باستقلاليته ويعتز بانتمائه القبلي ويحجم عن الاندماج مع غيره، ويجهد نفسه في الحصول على قوته وتوفير حاجياته.

فبعد إخضاع بلاد القبائل وإخماد مقاومة رجال الزوايا بها (١٨٤٤ - ١٨٥٧)[4]، انصب اهتمام الضباط الفرنسيين العاملين بالمنطقة وموظفي الإدارة المحلية المعروفة بـ «المكاتب العربية» (Bureaux arabes) وبـ «الدوائر البلدية الممتزجة» (Communes mixtes)[5]، كما تركز نشاط الباحثين الفرنسيين المختصين - وأغلبهم ممن عمل بالجيش الفرنسي - بالشؤون الأهلية (Affaires indigènes)، على رصد كل ما يميز «القبائل» عن غيرهم من الجزائريين، بتشجيع من الحكام العامين للجزائر مثل المارشال بيجو (Maréchal Th. R. Bugeaud) والجنرال راندون (Général Randon) وماكماهون (Mac Mahon) الذين كانوا يصدرون تعليمات خاصة بفصل القبائل عن غيرهم من الجزائريين في المعاملات وفي القوانين. وقد أبدى هؤلاء

الضباط والموظفون الفرنسيون حماسة وإصرارا في مهمتهم حتى عرفوا في أوساط الإدارة الفرنسية بالضباط والموظفين «ذوي الميول القبائلية» (Officiers kabylophiles) وكونوا لأنفسهم قناعات تتلخص في فصل القبائل عن باقي الجزائريين، وهذا ما جعلهم يؤمنون بضرورة أن يكون لفرنسا «سياسة بربرية» في الجزائر، ونظرا لكون تلك السياسة غير واقعية ومستحيلة التطبيق لرفض غالبية السكان لها ولتخوف المعمرين الأوروبيين من نتائجها، فإنها ظلت مجرد فكرة أيديولوجية وخطة سياسية، عرفت لدى العديد من الدارسين للسياسة الفرنسية في الجزائر بـ «الخرافة القبائلية» أو «الوهم القبائلي» (Mythe kabyle)، وكان في طليعة من حلل هذه السياسة المؤرخ شارل روبير آجرون (Ch. R. Ageron)(٦).

وبغض النظر عن ملابسات هذا الوهم أو الخرافة القبائلية فإن الاهتمام بمنطقة القبائل وفر إسهاما أدبيا وتاريخيا ومرجعا أيديولوجيا للسياسات البربرية لفرنسا في الجزائر، كانت بدايته ما تركه المستشرق الفرنسي فانتور دو بارادي (Venture de Paradis) أواخر القرن الثامن عشر من ملاحظات حول قواعد اللغة البربرية ومفرداتها، والتي جمعت وطبعت بباريس (١٨٤٤) بعنوان «قواعد ومفردات اللغة البربرية»(٧)، وكذلك ما لاحظه الأب رينال (Abbé G. F. Raynal) عن البربر في كتابه: «التاريخ الفلسفي والسياسي لمؤسسات وتجارة الأوروبيين في أفريقيا الشمالية» (١٨٢٦)(٨).

لقد غطى الإسهام الفرنسي المتعلق بمنطقة القبائل والمؤسس للمسألة البربرية فترة تجاوزت القرن (١٨٢٦ - ١٩٣٠) وأوجد رصيدا معتبرا من الأدبيات والدراسات التي تعالج «إثنوجرافية القبائل» من حيث التقاليد والأعراف والروايات الشفوية والتراث الفولكلوري والمظاهر الاجتماعية والدلالات اللغوية والبقايا الأثرية، فكانت أساسا لما يعرف بـ «رصيد الوثائق البربرية» (Fonds de documentation berbère)، هذا الرصيد الذي حرص الآباء البيض في بلاد القبائل على جمعه منذ سنة ١٨٤٧، وعملت مراكز البحث الفرنسي حاليا على توفيره في المكتبات ليكون مرجعا مفضلا للباحثين الفرنسيين ولدعاة الفكرة البربرية في الجزائر.

شكلت هذه الدراسات حول المسألة البربرية بالجزائر أدبيات أيديولوجية ومعالجات إثنوجرافية كانت الأسس التي يقوم عليها علم «الاجتماع الاستعماري» في الجزائر (Sociologie coloniale) وتنطلق منها «الإثنوجرافية والأنثروبولوجية الأهلية» (Anthropologie et ethnologie indigènes)، وقد أحصى منها العقيد ماسكوراي (Masqueray) في كتابه «تكوين المراكز الحضرية للسكان المستقرين بالجزائر: قبائل جرجرة والأوراس وميزاب» الصادر سنة ١٨٨٦، ستمائة عنوان عن بلاد القبائل ومائة وسبعين عن منطقة الأوراس(٩).

ولأهمية هذه الدراسات المؤسسة للدعوة البربرية في الجزائر، فإننا سوف نشير إلى بعض العينات المهمة منها مرتبة حسب تاريخ ظهورها في القائمة التالية[١٠]:

- (١٨٣٥) ج. فرعون (J. Pharaon): القبائل وبجاية.
- (١٨٣٧) أ. دورو دو لامال (A. Dureau de la Malle): معلومات حول استيلاء الفرنسيين واستقرارهم في هذا الجزء من شمال أفريقيا.
- (١٨٣٧) الضابط هـ. صالادان (H. Saladin): رسالة حول استعمار الممتلكات الفرنسية في شمال أفريقيا.
- (١٨٣٩) العقيد إدمون لابين (Colonel Ed. Lapène): ستة وعشرون شهرا ببجاية - مذكرة تاريخية وأخلاقية وسياسية وعسكرية حول القبائل، طبع جزء منه منفصل بعنوان: لوحة تاريخية واجتماعية وسياسية حول القبائل (١٨٤٦).
- (١٨٤٠) القس سوشي (Abbé Suchet): رسائل أساسية ومثيرة حول البلاد الجزائرية.
- (١٨٤١) الأب دوغا (Père Dugas): بلاد القبائل وشعب القبائل.
- (١٨٤١) البارون بود (Baron Baude): الجزائر.
- (١٨٤١) أ. بافو (E. Bavoux): رحلة سياسية ووصفية في الشمال الأفريقي.
- (١٨٤٤) ش. بروسلار (Ch. Brosselard): القاموس الفرنسي البربري، بمعونة سيدي أحمد بن الحاج علي.
- (١٨٤٥) المارشال ث.ر. بيجو (Maréchal Th. R. Bugeaud): عرض للوضع الحالي للمجتمع العربي أو مختلف الأعراق التي تسكن البلاد الجزائرية (عربا وقبائل).
- (١٨٤٧) الكابتن فابار (Capitaine Fabar) والجنرال أوجين دوما (Général Eu. Dumas): بلاد القبائل الكبرى - دراسات تاريخية.
- (١٨٤٧) ش. دوبلان (Ch. Duplan): القبائل وبلاد القبائل.
- (١٨٤٨) الكابتن أ. كاريت (Capitaine E. Carette): دراسة حول بلاد القبائل الحقيقية.
- (١٨٥٢) الجنرال أوجين دوما (Général Eu. Daumas): عادات وتقاليد البلاد الجزائرية (التل وبلاد القبائل والصحراء) وبلاد القبائل والمجتمع البربري.
- (١٨٥٧) أ. بربروغجي (A. Berbrugger): الفترات العسكرية في تاريخ بلاد القبائل، والتخوم العسكرية للقبائل الكبرى تحت الحكم التركي (مقاطعة الجزائر).
- (١٨٥٨) ش.ل. فيرو (Ch. Féraud): مذكرات حول بجاية.
- (١٨٥٩) س. دوفو (C. Devaux): قبائل جرجرة.
- (١٨٦١) الطبيب أ. برنار (Dr. A. Bernard): الحملة العسكرية على بلاد القبائل.
- (١٨٦١) العقيد ل. غان (Colonel L. Guin): مذكرة حول الشيخ قاسم القشتولي.

- (١٨٦٤) البارون هنري أوكابيتان (Baron H. Aucapitaine): القبائل واستعمار الجزائر.
- (١٨٦٦) ش. فارين (Ch. Farine): عبر بلاد القبائل.
- (١٨٦٦) ن. بيبيسكو (N. Bibesco): قبائل جرجرة.
- (١٨٦٧) غابريال هانوتو (G. Hanoteau): الأشعار الشعبية لقبائل جرجرة.
- (١٨٧١) أو. بومال (Au. Pomel): أجناس أهالي بلاد الجزائر (عرب، قبائل، حضر، يهود).
- (١٨٧٢) العقيد أ. هانوتو (A. Hanoteau): قواعد القبائلية.
- (١٨٧٢) أ. هانوتو (A. Hanoteau) وأ. لوتورنو (A. Letourneau): بلاد القبائل والعادات القبائلية.
- (١٨٧٣) العقيد ن. روبان (Colonel N. Robin): مذكرة حول التنظيم العسكري والإداري للأتراك ببلاد القبائل الكبرى.
- (١٨٧٥) هـ. فورنال (H. Fournel): البربر دراسات حول فتح العرب لأفريقيا.
- (١٨٧٨) الطبيب غافوا (Dr. Gavoy): مذكرة حول تيزي أأوزو.
- (١٨٨١) م. مانوفرييه (M. Manouvrier): أنثروبولوجية الجزائر.
- (١٨٨٤) أو. مرسييه (E. Mercier): أهالي القطر الجزائري.
- (١٨٨٦) أو. ماسكوراي (E. Masqueray): تكوين المراكز العمرانية لدى السكان المستقرين بالبلاد الجزائرية (قبائل جرجرة...).
- (١٨٨٦) أو. هوداس (O. Houdas): إثنوجرافية الجزائر.
- (١٨٨٨) ش. أو. بيري (H. E. Perret): حكايات جزائرية.
- (١٨٨٨) ب. غافار (P. Gaffard): الجزائر المحتلة.
- (١٨٨٨) كامي فيري (C. Viré): القبائل.
- (١٨٨٩) أو. شارفينيا (E. Charveniat): عبر بلاد القبائل والمسائل القبائلية.
- (١٨٩٠) ل. رين (L. Rinn): تمرد القبائل سنة ١٨٧١.
- (١٨٩٢) جول ليونال (J. Lionel): أجناس البربر، قبائل جرجرة.
- (١٨٩٥) ج. بواسييه (G. Boissier): أفريقيا اللاتينية.
- (١٩٠٥) جورج إيليه (G. Elie): بلاد القبائل والآباء البيض.
- (١٩٠٥) ج. لوميستر (J. Le Maistre): عادات وتقاليد القبائل.
- (١٩١٢) ا. لاوست (E. Laoust): دراسة حول اللهجات البربرية لشنوة مقارنة بلهجات بني مناصر وبني صالح.
- (١٩١٣) إد. دوتي (Ed. Doutté) وأو. ف. غوتييه (E. F. Gautier): تحقيق حول انقراض اللغة البربرية.
- (١٩١٣) ج. مارسيه (G. Marçais): العرب في بلاد البربر من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر.

- (١٩١٤) العقيد ل. بيشو (Colonel L. Péchot): تاريخ أفريقيا الشمالية.
- (١٩٢١) ف. بيكيه (V. Piquet): حضارات شمال أفريقيا (البربر والعرب والترك).
- (١٩٢١) أو. برنار (Au. Bernard): تحقيق حول السكن الريفي للأهالي الجزائريين، الجزائر (١٩٢٩).
- (١٩٢٣) أو. لارشيه (E. Larcher) وجـ. ريكتنفالد (G. Rectenwald): مدونة أولية للتشريع الجزائري.
- (١٩٢٣) لويس برتران (L. Bertrand): الإسلام ونفسية المسلمين - فصيلة الأجناس (١٩٣٠).

ب- فرضيات وطروحات المسألة البربرية بالجزائر

إن هذه الدراسات حول العنصر البربري في الجزائر وما يتعلق منها بالبناء الاجتماعي لمنطقة القبائل وخاصة ما يرجع منها إلى العادات والتقاليد والثقافات الشفوية والمهارات العلمية والظواهر المادية وشواهد ما قبل التاريخ والبقايا الأثرية والدلالات اللغوية وفرت الإطار النظري والمرجع الأيديولوجي لتحديد قواعد تطبيقية «للسياسة البربرية» لفرنسا في الجزائر، هذه السياسة التي صيغت من طرف منظري المشروع الاستعماري في شكل فرضيات مسلم بها وأفكار غير قابلة للمناقشة والنقد من أجل تحقيق أهداف محددة أساسها تقسيم الجزائريين إلى هويتين قبائلية وعربية ووضع حواجز بين المجموعتين لمصلحة الاستعمار الفرنسي ولفائدة الثقافة الفرنسية.

و انطلاقا من قراءة متفحصة لهذه الفرضيات والأفكار المؤسسة للمسألة البربرية يمكن تحديد الخطوط العامة لها في النقاط التالية:

١- فصل القبائل عن باقي الجزائريين باعتبارهم مع غيرهم من المجموعات البربرية إثنية متميزة لا تمت للعرب بأي صلة، بل هي معادية بطبيعتها للعرب (Les berbères ennemis nés des Arabes)، إذن فعلى فرنسا والحالة هذه أن توجد توازنا بين العرب والقبائل باعتبارهما إثنيتين أو قوميتين متميزتين، وهذا ما أوضحه أو. شارفينيا بقوله: «يوجد في الجزائر عنصران متميزان من حيث اللغة والعادات وحتى الدين، وهما العنصر القبائلي والعنصر العربي، ويجب علينا أن نبقي هذا التمايز والانقسام»[١١].

بادرت الإدارة الفرنسية في الجزائر إلى سن قوانين تهدف إلى إبعاد القبائل عن باقي الجزائريين في المعاملات الإدارية وفي التمثيل المحلي، فجعلت للقبائل تمثيلا خاصا بهم في المجالس المالية (Délégations financières) (١٨٩٨)، وخصصت لهم ستة ممثلين من مجموع واحد وعشرين ممثلا في هذه المجالس لكل الجزائريين؛ وقد كانت حجة الإدارة الفرنسية ودارسي البربريات في هذا التقسيم أنهم يسعون إلى المحافظة على إثنية السكان الأصليين

لشمال أفريقيا، وهم البربر، المهددة من جهة العنصر العربي الذي يمثل في نظرهم فئة ضئيلة تهيمن على أغلبية محلية حسب تعبير دي شومان[١٢]، ويجاريه في ذلك فيكتور بيكي (V. Piquet) عندما يعلن صراحة أنه: «لا يمكن القبول بالفكرة القائلة بأن شمال أفريقيا أهل بالعرب... إن سكان شمال أفريقيا غير عرب فهم ليسوا سوى مغاربة (Maures)... إن هذه البلاد هي تراث هذا الجنس الجميل الذي يسكن جبال القبائل»[١٣]، ويؤكد فكرته لويس برتران (L. Bertrand) عندما يعتبر أن: «البربر في الجزائر هم الأصل وأن العرب ما هم إلا غزاة دخلاء»[١٤]، وهو لا يختلف في توجهه هذا عن أوغيسطان برنار (Au.Bertrand) الذي يحط من شأن العرب ويذكر: «أنه يجب ألا نبالغ في تأثير الحملة الهلالية التي عربت المغرب في القرن الحادي عشر، فالبربر وإن نسوا لغتهم وأخذوا لغة الغزاة، فهم بكل يقين قد حافظوا على تفوقهم العددي»[١٥]، والحكم نفسه نجده عند فورنال (Fournel) عندما يستخلص في دراسته للفتح العربي لبلاد المغرب: «أنه اكتشف الجنس البربري وتعرف على طباعه وتيقن أن نسبة تأثره بالعرب ليس لها أي أهمية»[١٦].

وقد انتهى الأمر بدارسي البربريات من الفرنسيين في الجزائر إلى حد اعتبار القبائل أقرب الجماعات السكانية إلى الأوروبيين، فحسب فيكتور بيكي: «أن لهم صلة قرابة بالأجناس الأخرى بحوض البحر المتوسط، وأنهم جنس قوي عرف كيف يحد من غرائزه الحربية ويحولها إلى نشاط سلمي متميز»[١٧]، أما غاستون بواسييه (G. Boissier) فيرى أن: «القبائل شعب نبيل في انتمائه قابل للتحول السريع والتقبل لكل الحضارات التي كان على اتصال بها، وهو يعد من بين الشعوب التي استطاعت أن تحافظ جيدا على خصائصها الأولية وطبيعتها الخاصة، وهذا ما جعله شعبا يجمع عدة خصائص قد لا نجدها متوافرة لدى شعب آخر بهذه الدرجة، فهو قد يظهر لنا أنه مستسلم متقبل بصفة تامة ومتعايش مع أوضاع الآخرين، ولكنه في أعماقه يحافظ على نفسه وبكلمة واحدة هو شعب قليل المقاومة ولكنه شديد الثبات والاستمرار»[١٨]. وهذا ما أخذ به أحد دعاة البربرية ببلاد القبائل وهو المحامي آبازيزن الذي استبدل اسمه بأوغسطين بعد اعتناقه المسيحية، إذ يعتبر: « أن القبائلي ليس ساميا في أصله، ولكنه ينتمي إلى إنسان المتوسط الذي ألجأه التاريخ إلى جبال جرجرة والذي هو في ميوله أقرب إلى الشعوب اللاتينية»[١٩].

وقد صاحب هذا التوجه محاولة تحديد المواصفات الإثنية للعرب والقبائل، فوصفوا العرب بأنهم بدو يمتهنون الفروسية ومتدينون وذوو شعور وعيون سوداء وبشرة أكثر سمرة، فيما القبائل مشاة وفلاحون قليلو التدين شقر الشعور زرق العيون، مع أن هذه الأحكام في أساسها منافية لكل منطق علمي وحقيقة تاريخية، لأن سكان الجزائر يعتبرون من عنصر بشري واحد نتج عن امتزاج العرب بالبربر وانصهار الأقوام الأخرى التي اختلطت بهم بحيث أصبح من المستحيل التمييز بين البربري القح والعربي الأصيل.

ومن هذا المنطلق فإن منظري السياسة البربرية لفرنسا في الجزائر لم يترددوا في إطلاق أحكام عنصرية صارخة تحط من شأن من اعتبروه عربيا. فالجنرال دوما (Général Eu. Daumas) يستنتج في دراسته للمجتمع الجزائري أن العربي بدوي مترحل بدائي ومنحط وغير جدي وكسول وأن القبائلي فلاح منتج متحضر فخور بنفسه وعامل مجتهد يرى في الكسل عارا ومذلة[٢٠]. وكذلك الدليل السياحي لبجاية (Guide de Bougie) الصادر في ١٩١٤ الذي يعرف السائح الأوروبي بطبيعة السكان بهذه العبارة: «إن القبائل أفضل من العرب ولهم قابلية الاندماج في بوتقة التقدم لحضارتنا»[٢١]. وقد كان القصد من هذا الحط من شأن العنصر العربي وإلحاق شتى الأوصاف المنحطة به والافتخار بالعنصر القبائلي هو جعل القبائل يحسون بشخصيتهم ويخلق لديهم عقدة التميز التي سوف تكون بمثابة حاجز نفسي بينهم وبين باقي الجزائريين.

وقد أخذ هذا التوجه لدى مجموعة الضباط والموظفين ودارسي البربريات الفرنسيين في الجزائر طابع حملة صليبية بلغت أوجها في نهاية القرن التاسع عشر وظلت آثارها ماثلة حتى الذكرى المئوية للاحتلال الفرنسي للجزائر (١٨٣٠) (Centenaire). فصنفوا العرب في خانة الأعداء والخصوم واعتبروا العرب في الجزائر أعداء والفتح الإسلامي احتلالا والهجرة الهلالية في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) عامل تخريب وتدمير. فالضابط الفرنسي كاريت (E. Carette) وهو أحد منظري السياسة البربرية لفرنسا في الجزائر يصف الوجود العربي بالجزائر بهذه العبارات الاستفزازية: «لقد كان هجوم العرب الفاتحين كالإعصار يقتلع الأشجار ويهدم المنازل، وهجوم الهلاليين كالحريق الهائل الذي يذر الأشجار والمساكن رمادا تذروه الرياح، فما أبقاه الإعصار قضى عليه الحريق، وما بقي عن السياسة العربية قائما ذهب به الطبع الهلالي، فأتم الهلاليون أعمال التخريب التي ابتدأها الخلفاء الأولون»[٢٢]. والموقف نفسه يتبناه أحد دعاة البربرية المدعو لحواسن معتوقي عندما يعلق عن التغريبة الهلالية بهذه العبارة: «إنها كثيرة هي الآلام التي نتجت عن اجتياح الهلاليين في الماضي، هذا الاجتياح الذي كان نتيجة خيانة وغدر عرب القاهرة (يقصد الفاطميين) الذين يتحملون مسؤولية ذلك»[٢٣].

٢- إبعاد القبائل عن الأحكام الإسلامية من حيث الأحوال الشخصية والمعاملات والقوانين واستبدالها بالتقاليد والعرف والعادات (Us et coutumes) وبالقوانين الفرنسية لكونها كفيلة بتأكيد خصوصيتهم العرقية ووضعهم الاجتماعي المتميز ولأنها أكثر ملاءمة لنفسية القبائل التي زعموا أنها لم تتأثر كثيرا بالواعز الديني، فضلا عن أن إلغاء الأحكام الشرعية لدى القبائل في حد ذاته يعتبر بمثابة القضاء على القاسم المشترك الذي يوحد الجزائريين ويحفظ كيانهم ويحول دون نجاح المخطط الاستعماري الفرنسي الذي يستهدف هويتهم.

وفي هذا المسعى بادر الحكام الفرنسيون بالجزائر بعد إخضاعهم بلاد القبائل إلى إلغاء أحكام الشريعة الإسلامية التي كانت متبعة في أوساط قبائل جرجرة، فأصدر حاكم الجزائر راندون (Randon) تعليمة (Circulaire) تحت رقم ٤٩٧ بتاريخ ١١ يناير ١٨٥٨ للضباط العسكريين القائمين على المكاتب العربية ببلاد القبائل يطلب فيها منهم التخلي في معاملاتهم عن القوانين التي لها اتصال بالشرع الإسلامي، والتي كانت «المكاتب العربية» تطبقها في مجمل أنحاء الجزائر، واستبدالها بتنظيم محلي خاص بالقبائل لكونه يتلاءم مع أفكارهم ويقربهم أكثر إلى النظام الفرنسي [٢٤]، وبالفعل دخلت هذه التعليمة حيز التنفيذ العملي بعد أن صيغ العرف القبلي في شكل قوانين قابلة للتطبيق، وقد كان في طليعة الضباط المتحمسين لاستبدال أحكام الشرع الإسلامي بالعرف القبلي العقيد بيشو (Colonel Péchot)، فقد كان يرى أن من واجب فرنسا أن تصوغ كل الأعراف والتقاليد القبلية في شكل أحكام وتطبقها في كل بلاد القبائل، وقد وجد المساعدة من العقيد هانوتو (Colonel Hanoteau) والمستشار لوتورنو (Conseiller Letourneau)، فلم يتراجع الأول أمام الصعوبات والعوائق القانونية وأكد الثاني في رسالته المؤرخة في ١٤ نوفمبر ١٨٦٩ للسلطات الفرنسية: «إن فكرة إحياء العرف القبلي قد فرضت نفسها وشقت طريقها للتطبيق في شكل أحكام موحدة وموثقة على نصف مليون من البربر (القبائل)»[٢٥].

وبالفعل فقد انصب اهتمام الضباط الفرنسيين العاملين بمنطقة القبائل ومستشاري الإدارة الفرنسية بها على توفير المادة القانونية القابلة للتطبيق اعتمادا على الملاحظات التي جمعوها والكتابات التي أنجزوها حول عادات وتقاليد القبائل، مما وفر مادة قانونية عرفت بـ«القانون القبلي»، وأوكلت إلى كل من كاريت (E. Carette) ودوما (Eu. Daumas) وهانوتو (Hanoteau) ولوتورنو (Letourneau) وميو (Milliot) مهمة تجميعها وصياغتها، وبذلك أمكن للإدارة الفرنسية ببلاد القبائل إلغاء أحكام الشريعة الإسلامية المتعلقة بالأوقاف والمعاملات من نكاح وطلاق وما يتفرع عنهما من ميراث ووصية وحجر وتعويضها بالقانون القبلي. فقد نص قانون ٣١ ديسمبر ١٨٥٩ الخاص بأحكام الشريعة الإسلامية المتبعة في الجزائر على أن بلاد القبائل لا يشملها هذا القانون، ولم يطل الأمر حتى اغتنمت السلطات الفرنسية أحداث انتفاضة الرحمانيين (١٨٧١) لتنزع الصلاحيات القضائية ذات الصبغة الإسلامية من مجلس الجماعة (الخروبة) وتجعلها في يد قاضي الصلح المعروف بالقاضي الموثق المكلف بتسجيل القضايا ومساعدة محرري العقود الفرنسيين (Notaires)، وبعد ثلاث سنوات من ذلك تم عمليا إلغاء القضاء الإسلامي ببلاد القبائل وتعويضه رسميا بالقانون الفرنسي في كل المعاملات بفعل قانون ٢٩ ديسمبر ١٨٧٤، وهذا ما استوجب تجميد المجالس الاستشارية وحل مجالس الجماعة نهائيا (١٨٨٢) وتحويل صلاحياتها إلى قضاة الصلح (الموثقين) الفرنسيين (١٨٨٩)[٢٦].

و كان الهدف من هذا التوجه المعادي للهوية الإسلامية هو جعل منطقة القبائل ميدان تجربة لما سوف يعمم على جهات عدة أخرى من الجزائر والمغرب الأقصى، وقد بدا التحضير لذلك مع استدعاء إدموند دوتي (Ed. Doutté) إلى الرباط (١٩١٢) ونقل آندري باسيه (A. Basset) من الجزائر إلى الرباط (١٩٢٢ - ١٩٣٠)، لتعزيز جهود بعض دارسي البربريات في عملهم الدؤوب من أجل إصدار الظهير البربري في المغرب الأقصى (١٩٣٠)[٣٧].

هذا وقد ظلت هذه السياسة الفرنسية أساسا لعمل المشرعين الفرنسيين الذين اشترطوا على الجزائريين، للحصول على المواطنة الفرنسية، التخلي عن أحكام الشرع الإسلامي فيما يخص الأحوال الشخصية سواء في مواد مرسوم الإمبراطور نابليون الثالث المعروف بالسيناتوس كونسولت (Senatus Consulte) في ١٤ يوليو ١٨٦٥ أو أحكام قانون الأحوال الشخصية لعام ١٩١٩.

٣- العمل على إضعاف الشعور الإسلامي لدى القبائل ونشر المسيحية بينهم بحيث انطلق منظرو المشروع الاستعماري وفي مقدمتهم بعض رجال «كنيسة أفريقيا» في سعيهم لتحييد العقيدة الإسلامية والتمهيد لنشر المسيحية بين القبائل من مسلمات غاية في السذاجة، فقد اعتبروا أن إسلام البربر، وخاصة القبائل منهم، إسلام سطحي وأن عقيدتهم الأصلية هي المسيحية، وأن على فرنسا أن تساعدهم على استرجاعها، وكانوا يهدفون من وراء ذلك إلى القضاء على العامل المشترك والرابطة التي لا تنفصم بين الجزائريين والعروة الوثقى التي تشد الجزائر وباقي أقاليم المغرب إلى ربوع المشرق العربي[٣٨]. فاعتبرت الإدارة الفرنسية «الإسلام» عدوها الأول في الجزائر، مما جعلها تعمد إلى محاصرة الكتاتيب القرآنية وتحارب من يحاول تعليم العربية باعتبارها لغة القرآن ووسيلة لفهم العقيدة والتفقه في الدين، وقد انتهى الأمر بالإدارة الفرنسية، سنة ١٩٠٤، إلى سن قانون يعتبر اللغة العربية لغة أجنبية لا يسمح بتعليمها إلا بتصريح خاص.

ومع المقاومة التي أبدتها زوايا بلاد القبائل - في الحفاظ على تعليم القرآن وأحكام الدين، وفي توعية السكان بمخاطر الحركة التبشيرية - اتخذ النشاط التبشيري ببلاد القبائل في بدايته طابع أعمال خيرية وخدمات صحية وتعليمية، فبادرت المؤسسة التبشيرية برئاسة الأسقف لافيجري إلى تقديم يد العون والمساعدة للمحتاجين وتوفير التعليم في المؤسسات الدينية، وقد وجدت فرصة سانحة في مجاعة ١٨٦٧. هذه المجاعة التي ذهب ضحيتها ما يقدر بربع سكان الجزائر ومنهم عشرات الآلاف في بلاد القبائل، فخصصت الأسقفية إعانات للمتضررين قدرت بـ ٨٠٠٠٠ فرنك جمعت بالاستعانة بالسلك الكنسي بفرنسا، وهذا ما سمح بجمع ١٧٥٣ طفلا يتيما تتراوح أعمارهم بين ثماني وعشر سنوات من بلاد القبائل، ووفرت لهم المأوى والدراسة بعد تعميدهم وتلقينهم مبادئ الدين المسيحي[٣٩].

ولم ينته القرن التاسع عشر حتى أنشئت ثلاثون كنيسة ببلاد القبائل وفتحت سبعة عشر مدرسة تبشيرية بها ٢١٥٨ طفلا موزعين على ٦٠ قسما دراسيا يعلم بها ٣٤ راهبا من «الإخوة البيض» و٥٠ راهبة من «الأخوات البيض» موزعة على العديد من قرى بلاد القبائل منها: الواضية (١٨٧٨)، بني إسماعيل، جمعة الصهاريج، بني منقلات، إيغيل علي، ثاقمونت عزوز، تيزي أوزو، واد عيسي، آقبو (١٩٢٨)[٣٠]، وهذا ما سمح فيما بعد بتخريج عدد أكبر من ذوي الثقافة الفرنسية المتفهمين لمتطلبات الحضارة الغربية والبعيدين عن كل انتماء عربي أو إحساس إسلامي.

لم يحقق النشاط التبشيري في بلاد القبائل مكاسب معتبرة، فلم يعتنق المسيحية إلا أفراد قليلون أغلبهم اندمج في المجتمع الفرنسي بعد حصولهم على الجنسية الفرنسية ولم يعودوا يعتبرون أنفسهم من القبائل الذين ظلوا على دينهم، لأن المجتمع القبائلي رفضهم واعتبرهم كفارا ومرتدين لا يجوز التعامل معهم بل لم يسمح لهم بأن يدفنوا في مقابر المسلمين، أما الذين حصلوا على الجنسية الفرنسية وتخلوا عن كل أحكام الشريعة الإسلامية فقد اعتبرتهم الإدارة الفرنسية كباقي الجزائريين رغم تجنسهم والتزامهم في معاملاتهم بالقانون الفرنسي، كما حدث في الانتخابات المحلية بالقبائل التي رفض نتيجتها الفرنسيون حتى لا يكون المسلمون أغلبية بالمجلس البلدي، رغم أن أغلب الفائزين بها كانوا من القبائل المتجنسين الذين تخلوا عن أحوالهم الشخصية الإسلامية[٣١].

٤- دمج القبائل في بوتقة الحضارة الغربية وتمثلهم في المجتمع الفرنسي وتسخيرهم لخدمة المصالح الفرنسية في شمال أفريقيا بدعوى أنهم أقرب إلى الفرنسيين منهم إلى باقي الجزائريين في أصولهم وعاداتهم وقدراتهم وقابليتهم. فالشعب القبائلي - حسب أقوالهم - سليل سكان فرنسا الأصليين من الغالين والرومان، وهذا ما جعله متقبلا بطبعه للحضارة الفرنسية، فاعتبر الكاتب الفرنسي اليكسي دو طوكفيل (A. de Tocqueville) أن: «بلاد القبائل وإن كانت مغلقة أمامنا إلا أن نفوس وضمائر سكانها القبائل متقبلة لنا»[٣٢]، وجاراه في ذلك العقيد آندري (Colonel André) الذي كان يرى أن: «القبائل هم أكثر قربا من شعب فرنسا وأن التفاهم المتبادل معهم ممكن الوصول إليه بكل سهولة»[٣٣].

بهذا التوجه اعتبر دعاة المشروع الاستعماري الفرنسي ببلاد القبائل أن أحسن وسيلة لاستيعاب القبائل وصهرهم في بوتقة المجتمع الغربي هي نشر التعليم الفرنسي بينهم بعد أن فشلت محاولات التنصير، فبدأت عملية فرنسة بلاد القبائل باكرا عندما بادرت حكومة جول فيري (Jules Ferry) بفتح أربع مدارس عرفت بـ «المدارس الوزارية» في كل من تامازيرت وجمعة الصهاريج وتيزي راشد وتاوريرت ميمون وآزفون لتكون نموذجا للمدرسة اللاتينية الفرنسية المكلفة بنشر الثقافة والقيم الفرنسية في المراكز السكانية لبلاد القبائل[٣٤]. ووفرت

هذه المؤسسات التعليمية النموذجية - مع العديد من المدارس البلدية التبشيرية التي أنشئت في قرى بلاد القبائل - التعليم الفرنسي لغالبية الأطفال ببلاد القبائل، بحيث رفعت نسبة المتمدرسين بمنطقة القبائل إلى مستويات لم تعرف في غيرها من الأقاليم الجزائرية، فأصبح لكل ٢١٠٠ طفل مدرسة فرنسية ببلاد القبائل سنة ١٨٨٣ في مقابل مدرسة واحدة لكل ٢٧٠٠٠ في منطقة الجزائر العاصمة و٤٠٠٠٠ في ناحية عنابة رغم كون هاتين المنطقتين عرفتا تمركزا للعناصر الأوربية وتطورا اقتصاديا ملحوظا[٢٥].

تركزت مساعي مخططي السياسة البربرية لفرنسا في الجزائر على وضع إطار كفيل بالوقوف في وجه المد العربي الإسلامي الذي بدأ يفرض نفسه مع تصاعد الحركة الوطنية الجزائرية في العشرينيات والثلاثينيات، فظهرت في منتصف القرن التاسع عشر فكرة تأكيد الطابع البربري لشمال أفريقيا على أن تكون أولى حلقاته حسب هذا المخطط صبغ الجزائر بطابع قبائلي (Kabylisation de l'Algérie)، لكن هذا المسعى مع تحوله إلى قناعة لدى المهتمين بالبربريات من إداريين وضباط فرنسيين، لم يلبث أن تخلت عنه الإدارة الفرنسية بعد إلغاء الحكم العسكري بالجزائر مع سقوط حكم نابليون الثالث وتحكم المعمرين الفرنسيين في مقاليد الأمور بالجزائر (١٨٧٠)[٢٦]، فلم يجد دعاة البربرية من الفرنسيين بدا من تعديل موقفهم وطرح فكرة التحالف المثمر بين فرنسا وبين القبائل باعتبارهم ممثلي القضية البربرية في شمال أفريقيا، فمستقبل شمال أفريقيا في نظرهم يقوم على تكوين تحالف فرنسي-قبائلي كفيل بتشكيل محور شمال جنوب يجعل شمال أفريقيا جزءا مكملا لأوروبا الجنوبية بشريا واقتصاديا وحضاريا، وهذا ما عبر عنه لحواسن معتوقي أحد الداعين لهذه الفكرة بقوله: «إن بلاد البربر (شمال أفريقيا) لم تكن شرقا ولم تكن إلا بعيدة عنه... وإن علاقتنا مع القارة الأوروبية لم تفتأ عبر القرون تتقارب وتتأكد لتصبح الوسيط الذي لا يمكن الاستغناء عنه بين أوروبا الغربية وغرب أفريقيا، وهذه العلاقة تقوم على محور شمال جنوب القائم على التضامن، والذي سوف يكون له دور بارز في حركة العالم. فالمستقبل يكمن في أورو-أفريقية (Eura-Afrique) أو الولايات المتحدة الأوروبية الأفريقية... وإن الماضي بظاهره، كما أن الحاضر بحقائقه العملية يجعل ذلك في حكم اليقين»[٢٧]، والفكرة نفسها أخذها أحد المؤثرين في السياسة الفرنسية الجزائر الجنرال آندري بقوله: «إن سكان شمال أفريقيا قد عرفوا أن مصلحتهم الحقيقية في الانضمام إلى محور شمال جنوب القائم على فكرة «المتوسطية الغربية»، وليس محور شرقي غربي الذي ما فتئ البربر يرفضونه عبر التاريخ، وإن وجود المهاجرين من القبائل بفرنسا لدليل على التواصل الفرنسي القبائلي الذي سوف يؤسس لشراكة حقيقية فرنسية-قبائلية نابعة من رغبة الجانبين ولتحقيق فائدة الطرفين»[٢٨].

ولم يلبث هذا التوجه القائم على التحالف الفرنسي القبائلي أن اتخذ طابعا ثقافيا بعد أن استحال تحقيقه اقتصاديا وسياسيا نظرا لطبيعة الاستعمار الفرنسي ولتصاعد المد الوطني في أقطار شمال أفريقيا، فوجدوا تعويضا عن ذلك في الإنتاج الأدبي الفرنسي الذي ساهم به كتاب جزائريون من منطقة القبائل محل تقدير وتنويه لكونه يؤكد التواصل المنشود بين المجموعة القبائلية والفرنسية، وهذا ما نلاحظه بوضوح في تلك التعليقات الأدبية حول قصة «الربوة المنسية» (La colline oubliée) لمؤلفها مولود معمري كما سوف نتطرق إليه لاحقا عند تعرضنا لواقع النخبة البربرية في الجزائر.

٥- العمل على تطوير اللسان البربري وخاصة اللهجة القبائلية لتكون لغة منافسة للغة العربية ومتفاعلة مع الثقافة الفرنسية، بحيث توجه اهتمام دارسي البربريات في الجزائر إلى محاولة وضع قواعد للهجات البربرية العديدة في محاولة لضبط دلالاتها وتكوين قواميس لمفرداتها، فاعتنوا بنشر مخطوط فانتور دو بارادي (Venture de Paradis) حول قواعد ومفردات اللغة البربرية سنة ١٨٤٤ [٣٩]، وأجهد الضابط بروسلار (Brosselard) نفسه ليضع قاموسا فرنسيا بربريا بالاستعانة بأحد الموظفين القبائل يدعى سيدي أحمد بن الحاج علي[٤٠]. وأحدث بمدرسة الآداب الجزائرية كرسي لدراسة اللهجات البربرية سنة ١٨٨٥، شغله سي الهاشمي بن سي لونيس، ثم عين به سي السعيد بوليفة (١٩٠٠)، وخول له منح شهادة أولية في معرفة اللسان القبائلي ينال الحاصل عليها علاوة مالية سنوية قيمتها ٣٠٠ فرنك وإعطاء شهادة عليا في اللهجات البربرية تخول المتحصل عليها حق الانتفاع بمنحة سنوية حددت بـ ٥٠٠ فرنك، كما أحدثت جوائز تشجيعية عام ١٨٨٢ لترغيب الموظفين الفرنسيين في معرفة القبائلية[٤١].

هذا وقد أتت هذه الجهود أكلها، فلم ينته القرن التاسع عشر حتى ظهرت العديد من الدراسات حول اللهجات البربرية خاصة القبائلية منها، فكانت منطلقا لعمل الجيل الثاني من دارسي البربريات (١٩٠٠ - ١٩٤٦) وفي مقدمتهم هنري باسيه (H. Basset) صاحب الأطروحة الشهيرة حول الأدب البربري (١٩٢٠)[٤٢] وابنه آندري باسيه (A. Basset) وديستانغ (Destaing) وهنري لاوست (H. Laoust) وبيارمي (Biarmay) وإدمون دوتيه (Ed. Doutté) وغيرهم، الأمر الذي وفر إطارا للدراسات البربرية التي سوف تقوم عليها المحاولات المتأخرة للباحثين والمهتمين بالتراث البربري في مركز أبحاث الأنثروبولوجيا وما قبل التاريخ والإثنوجرافيا بالجزائر (C.R.A.P.E.) وبمدرسة اللغات الشرقية (E.L.O.) التابعة لجامعة باريس الثامنة ومخبر البحث العلمي (C.N.R.S.) بايكس آن بروفانس ومؤسسة الأكاديمية البربرية بباريس التي ظهرت سنة ١٩٦٧.

ورغم تلك الجهود فإن الباحثين الفرنسيين في مجال الدراسات البربرية ومن التحق بهم من الجزائريين أمثال مولود معمري (١٩١٧ - ١٩٩٢) وسليم شاكر قد ظلوا عاجزين عن



التغلب على الصعوبات الجمة التي واجهتهم وحالت دون وضع قواعد محددة وقواميس عملية للهجات البربرية ولم تسمح لهم بالاتفاق حول حروف مشتركة بين اللهجات البربرية، وهذا ما أبقى التراث البربري بمختلف لهجاته ثقافة شفوية غير قادرة على تجاوز اللغة العربية أو منافسة اللغة الفرنسية. ولعل أهم تلك العوائق تكمن في تعدد اللهجات البربرية من حيث النطق والدلالة اللغوية وابتعاد بيئاتها جغرافيا عن بعضها البعض وتراجعها أمام اللغة العربية الدارجة في كثير من الجهات بفعل عملية التعريب الذاتي التي تعيشها مجتمعات شمال أفريقيا منذ القرن التاسع عشر، وهذا ما لاحظه غوتييه في تقريره الذي وضعه بطلب من الإدارة الفرنسية سنة ١٩١٠[٤٣]، والذي كان مثار قلق السلطات الفرنسية.

كل هذه الظروف والأوضاع جعلت المهتمين والدارسين للبربريات من ذوي الثقافة الفرنسية يستعملون الفرنسية وسيلة لتعليم اللهجات البربرية وأداة للتعبير عن الثقافة الشفوية التي تحملها، الأمر الذي عمق ظاهرة التفرنس بين دعاة البربرية أنفسهم، ولم يسمح بظهور إنتاج أدبي مكتوب وقابل للتطور بتلك اللهجات. وبذلك ظلت الدراسات البربرية عاجزة عن ملء الفضاء الثقافي في الجزائر الذي احتلته العربية على المستوى الشعبي والفرنسية على مستوى النخبة. وهذا ما دفع دعاة البربرية في الجزائر بعد توسع عملية التعريب الرسمي عن طريق المدرسة إلى اعتبار اللغة الفرنسية الملاذ الأخير الذي يقيهم من الذوبان في محيط تسود فيه اللغة العربية والثقافة الإسلامية.

لقد أصبح هذا الوضع الذي تعيشه اللهجات البربرية اليوم معضلة لدعاة البربرية، فبعد أن ناضلوا سياسيا من أجل مطلب اعتبار «اللغة الأمازيجية» لغة وطنية قابلة للاستعمال والتدريس بجانب العربية وجدوا أنفسهم عاجزين أمام «أمازيجيات» عديدة غير موحدة في مفرداتها وحروف كتابتها، فكل مجموعة بربرية متمسكة بلهجتها ولا ترضى بالتنازل عنها لفائدة لهجة أخرى كما أوضح ذلك الكاتب المغربي رشيد إدريسي[٤٤]، وهذا ما أثاره ملتقى اللغة البربرية المنعقد بغرداية (٢١-٢٢ أبريل ١٩٩١)، وشكل لدراسته ثلاث لجان إحداها تنظر في المعاجم والقواميس والأخرى في المعطيات التاريخية والثالثة في مسألة الكتابة والخط دون أن تنتهي إلى نتيجة. مما جعل إحدى الجرائد الجزائرية تعلق على الملتقى بأنه «انتصار كبير لأقلية لا تفهم بعضها لاختلاف لهجاتها»[٤٥].

والحقيقة أنه لا يمكن إيجاد حل لهذه الوضعية إلا بالإجابة عن العديد من الأسئلة التي لم تجد جوابا مقنعا حتى الآن، ولعل أكثرها إلحاحا على دارسي البربريات هذه التساؤلات:

- كيف يمكن توحيد اللهجات البربرية في لغة أمازيجية واحدة، وكتابتها بحروف متعارف عليها ومتفق عليها؟

– ما اللهجة المهيأة لأن تكون منطلقا لذلك. وما نوعية الحروف التي يمكن أن يتفق عليها الجميع؟ وما المدى الزمني الذي يسمح بتطور إحدى اللهجات البربرية لتصل إلى مستوى منافسة العربية وتعويض اللغة الفرنسية؟

– وهل من الممكن تقليص الفرنسية في الفضاء الثقافي للجزائر لفائدة الأمازيجية وليس على حساب العربية؟

– وكيف يكون التعامل مع الثقافة العربية المرتبطة بالمد الإسلامي والمسلحة بالبعد الوطني والتي تعرف توسعا وتطورا ملحوظا، لا يمكن إيقافه لصالح ثقافة أخرى أو لغة منافسة مهما كانت حججها ومنطلقاتها ومواقفها؟

ج- رد الفعل الجزائري على السياسة البربرية لفرنسا

لم تحقق الإدارة الفرنسية في الجزائر ما كانت تأمله من تقسيم السكان وتصنيفهم إلى قبائل وعرب، كما لم ينجح دعاة البربرية من الموظفين والضباط ودارسي البربريات –وجلهم من الفرنسيين– فيما كانوا يسعون إليه من خلق واقع ثقافي واجتماعي ببلاد القبائل قائم على تكوين هوية بربرية معادية للعربية ومتحسسة من الإسلام ومتقبلة للغة وللثقافة الفرنسية، إذ امتنعت غالبية سكان بلاد القبائل عن مجاراة دعاة البربرية فيما كانوا يسعون إليه.

وقد كان الفضل في إفشال «السياسة البربرية لفرنسا» في بلاد القبائل يعود أساسا إلى نشاط زوايا بلاد القبائل ودعاة الإصلاح من رجال زواوة الذين سجلوا صفحات خالدة في الدفاع عن هوية الجزائر لا تقل عن تلك التضحيات التي بذلوها في مواجهة التوسع الفرنسي ببلاد القبائل في منتصف القرن التاسع عشر.

لقد وقفت زوايا بلاد القبائل سدا منيعا أمام دعاة السياسة البربرية، فكانت، بحق، الخط الدفاعي المتقدم عن شخصية الشعب الجزائري الذي تحطمت عليه المحاولات الأولى للفرنسة، والتنصير المشحون بالعداء العنصري للعربية والإسلام. فكانت زوايا بلاد القبائل التي ناهز عددها الأربعين وفي طليعتها زوايا: سيدي عبد الرحمن اليلولي وسيدي علي بن الشريف وسيدي منصور وسيدي محمد بوقبرين بآيت إسماعيل وسيدي علي بن موسى وسيدي علي قوقاس وسيدي أحمد بن إدريس والشيخ أعراب وأولاد مصباح وصدوق وتامقرا وبني ورتلان وغيرها[٤٦].

فقد حافظت هذه الزوايا على التقاليد المتبعة التي تقر بأن البربر أصولهم عربية وأن قسما منهم من ذوي المكانة الاجتماعية المرموقة والمؤثرين في الرأي العام هم من العرب الشرفاء، كما كانت هذه الزوايا أيضا مشتلا لتخريج حفظة القرآن العظيم الذين انتشروا في أنحاء الجزائر كلها يعلمون القرآن في الكتاتيب ويحافظون على العبادات يدعون إلى الأخلاق السامية في المجتمع الجزائري الذي انتشرت فيه آنذاك الأمية وعم الفقر والشقاء.

ومن زوايا بلاد القبائل رفعت العرائض الأولى التي تستنكر استبدال أحكام العرف القبائلي بأحكام الشرع، ومنها تلك العريضة التي وجهها جمع من شيوخ القبائل إلى الإدارة الفرنسية يستنكرون فيها اعتماد العرف المحلي المعروف بـ «القانون القبلي» لمنطقتهم ويطالبون بالرجوع إلى الشريعة الإسلامية، وهذا ما علق عليه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بقوله: «إن عريضة رجال زواوة المطالبة بإلغاء القوانين المحلية الخاصة بالأحوال الشخصية... اجتثت الغرس من أصله، وأقامت الدليل على المغرورين بالظواهر على أن زواوة معقل من معاقل الإسلام والعروبة، كانت ولا زالت، وأكرم بأصحاب الزوايا حين ينتصرون للدين هذا الانتصار، صوتنا مع صوتكم، ورأينا مع آرائكم في الرجوع إلى الأصل وهو حكم الشرع الإسلامي»[٤٧].

ولقد تعززت جهود الزوايا في المحافظة على الشخصية الإسلامية لبلاد القبائل بنشاط الحركة الإصلاحية في الجزائر المتمثلة في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (١٩٣١ - ١٩٥٦) إذ نبه، إلى آثار المخطط الفرنسي بمنطقة القبائل، أحد رواد جمعية العلماء وهو أحمد توفيق المدني في مطلع الثلاثينيات (١٩٣٢) بقوله: «... بربر بلاد الجزائر المسماة بلاد القبائل الكبرى وهم يمثلون الكتلة البربرية العظيمة ببلاد الجزائر... أصبحت العربية فيهم ضعيفة جدا، والتعليم العربي الديني أصبح شبحا ضئيلا رغم استمرار معاهده الكبرى (الزوايا)، والمدارس اللائكية تبث التعليم (الفرنسي) هناك بصورة منتظمة منعدمة النظير بالقطر الجزائري، ورجال التبشير حطوا هناك رحالهم وشيدوا مدارسهم للبنين والبنات... والتي وإن كنت كثير التفاؤل بمستقبل الإسلام في الجزائر قوي الإيمان بالنهضة العربية الإسلامية الحديثة، فإني أخشى على هذا القسم من بلاد الوطن أن تعبث به الأيدي، وأن ينفصل حبل اتحاده مع بقية البلاد، فإلى تلك الناحية يجب أن تتجه أنظار المفكرين والعلماء المسلمين»[٤٨]. ولم يفت الشيخ البشير الإبراهيمي كذلك فضح المخطط الفرنسي لبلاد القبائل عندما علق على الإجراءات الفرنسية ضد الأحكام الإسلامية بقوله: «...إن الحكم بالعوائد مطلب عزيز من مطالب الاستعمار الفرنسي، زرع بذوره في أرض زواوة، وتعهدها بالسقي والعلاج، غايته تمكين العوائد وجعلها أساسا للأحكام وإبعاد طوائف المسلمين عن الإسلام بالتدريج، حتى تضعف النعرة الدينية وعاطفة التآخي الإسلامي، وتصير الأمة الواحدة أمتين وأمما»[٤٩].

وبالفعل لم يتردد الرعيل الأول من رجال الإصلاح من أبناء منطقة القبائل عن مواجهة السياسة البربرية بالمنطقة، فنجحوا في إنشاء ثلاثين مدرسة ظلت تعلم النشء اللغة العربية والفقه الإسلامي حتى عام ١٩٥٦. كما دأبوا على توعية العامة وتنظيم حلقات الوعظ والإرشاد في المساجد، واستطاعوا أن يكونوا طلائع من الشباب متمسكة بالإسلام ومعتزة بالثقافة العربية، ومن هؤلاء الرجال الذين خدموا الجزائر في صمت وكرسوا حياتهم لخدمة الإسلام في الجزائر نذكر على سبيل المثال السعيد بن زكري (ت. ١٩٣٠) وارزقي الشرفاوي (ت. ١٩٤٥) وأبو يعلى

الزواوي (ت. ١٩٥٢) والمولود الحافظي والفضيل الورتلاني ويحيى حمودي الورتلاني والهادي الزروقي وعلي أولخيار الواقنوني والصادق عيسات وحسن حموش والعربي عيسى القمقوم والسعيد البهلولي الورتلاني وعبد الله شريفي أوشاش والسعيد بن عمر القنزاوي والشيخ سحنون أمقران والشيخ عبد الرحمن شيبان وإسماعيل العربي وكثيرون غيرهم[٥٠].

وكان الدافع لرجال الإصلاح ببلاد القبائل خدمة الدين والوطن والدفاع عن بيضة الإسلام المهضومة الجناح، وقد عبر عن ذلك الشيخ سعيد بن عمر القنزاوي في خطبته بنادي الترقي بالجزائر العاصمة في أثناء انعقاد مؤتمر جمعية العلماء (١٩٣٥) بهذه العبارة: «...لما أراد بنا الله السعادة سلك بنا والحمد لله والشكر له سبيل الرشاد والطريق الجادة الصحيحة، ألا وهي ما تدعو جمعية العلماء إليه... تلك الجمعية جمعية أيقظتنا... يا أيتها الأمة الجزائرية المسكينة الفاقدة لمجدها الضالة في سعيها الخاملة العليلة: هلمي إلى دواء نافع وشراب عذب ناقع.. ما عليه نبيك محمد صلى الله عليه وسلم وسلوك السلف الصالح، تفوزي بخير الدنيا وسعادة الآخرة»[٥١].

وقد اتخذت جمعية العلماء موقفا صريحا من السياسة البربرية للإدارة الفرنسية عندما حددت شعار مشروعها الإصلاحي في العمل على الدفاع على ثوابت الدين واللغة والوطن في عبارة: «الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا»، والذي خلده الإمام عبد الحميد بن باديس في قصيدته المشهورة التي مطلعها:

شعب الجزائر مسلم ... وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله ... أو قال مات فقد كذب[٥٢]

وأكدته شهادة الشيخ البشير الإبراهيمي عن عروبة البربر بقوله: «... إن القبائل مسلمون عرب وكتابهم القرآن يقرأونه بالعربية، ولا يرضون بدينهم ولا بلغته بديلا، ولكن الظالمين لا يعقلون...»[٥٣].

وتعززت جهود جمعية العلماء المسلمين بالنشاط السياسي لمنظمة النجم (E.N.A.) (١٩٢٥ - ١٩٣٧) وحزب الشعب (P.P.A.) (١٩٣٧-١٩٤٦) وحركة انتصار الحريات الديموقراطية (M.T.L.D.) (١٩٤٦ - ١٩٥٤) التي تبنت منذ ابتعادها عن التأثير الشيوعي (١٩٢٧) مبدأ المقاومة السياسية من أجل استرجاع السيادة الوطنية القائمة على الثوابت الحضارية للشعب الجزائري المتمثلة في العقيدة الإسلامية واللغة العربية، واعتبر التيار الاستقلالي في الحركة الوطنية الجزائرية أن من أولى مهامه المطالبة بتعليم العربية تعليما إجباريا، فأقرها برنامجه الأساسي (١٩٣٣)[٥٤]، ولم يتوان عن إنشاء المدارس على غرار جمعية العلماء لتعليم العربية، ولم يتردد في التشهير والتنديد بالمشروع الاستعماري الفرنسي بالجزائر القائم على فكرة تقسيم الجزائريين وتفريق صفوفهم، وقد أكد هذا التوجه أحد المناضلين في حزب الشعب

الشاعر المبدع مفدي زكريا أحد أبناء ميزاب البررة عندما حدد أهداف النضال السياسي لأبناء المغرب العربي في خطابه بتونس عام ١٩٣٤ في عبارته الشهيرة: «الإسلام ديننا وشمال أفريقيا وطننا والعربية لغتنا»[٥٥].

ولعل في خطبة مصالي الحاج في ٢ أغسطس ١٩٣٦ - ردا على مطالب المؤتمر الإسلامي التي سلمت بمبدأ اندماج الجزائر في فرنسا - ما يوضح تمسك الحركة السياسية الوطنية الجزائرية المتمثلة في منظمة النجم وحزب الشعب بثوابت الشعب الجزائري، فقد جاء في هذه الخطبة الشهيرة لمصالي في جموع المتحمسين في الملعب البلدي لمدينة الجزائر (العناصر) ما يلي: «احتراما للغتنا الوطنية اللغة العربية والتي كلنا نعتز بها ونعجب بها... وأيضا تقديرا لنبل هذا الشعب الجزائري الشجاع الكريم... فقد أردت أن أعبر أمامكم بعد نفي دام اثنتي عشرة سنة بلغتي الأم»[٥٦].

وقد كان لحزب الشعب وحركة انتصار الحريات الديموقراطية بزعامة مصالي الحاج دور مهم في وضع حد لنشاط دعاة البربرية الذين تسللوا إلى خلايا الحزب وتحكموا في أجهزته، بفرنسا خاصة، فيما سوف نستعرضه لاحقا عند تعرضنا للأزمة البربرية لحزب الشعب سنتي ١٩٤٨ و١٩٤٩. كما كان للمناضلين الوطنيين من القبائل دور أساسي في فضح دسائس دعاة البربرية والتنبيه إلى مخاطر السياسة البربرية للإدارة الفرنسية، ومنهم الوطني المناضل عمار أوزيغان الذي فضح أبعاد هذا المخطط بقوله: «إن الكلمة المركبة عربي-بربري عند الاستعماريين تعبر عن فكرة التعارض بين الشعبين واللغتين والثقافتين، ولهذا فإن مبدأ النزعة البربرية هو التجزئة الاستعمارية الذي يقدم في شكل حلقات قبائلية معارضة للعرب»[٥٧].

هذا وقد واصلت الثورة الجزائرية النضال ضد سياسة التفرقة الاستعمارية المتمثلة في المسألة البربرية، فنجحت في توحيد الشعب الجزائري والقضاء على الرواسب الاستعمارية ولو ظاهريا، واستطاعت أن تستقطب العناصر الجيدة والفاعلة في المجتمع وأن تحيّد النخبة البربرية وأن تجتذب أفضل عناصرها لتجنيدها في المشروع التحرري انطلاقا من نداء أول نوفمبر الذي حدد مطلبه الأول في العمل من أجل إقامة الدولة الجزائرية الديموقراطية الاجتماعية ذات السيادة في إطار المبادئ الإسلامية[٥٨].

لقد كان لرجال منطقة القبائل مساهمة معتبرة ودور أساسي في الثورة التحريرية، وهذا ما جعل الفرنسيين ينسون ما كانوا يخططون له لينقلبوا على القبائل ويمعنوا فيهم قتلا وتدميرا[٥٩]. وللتاريخ، فإن جهود رجال الثورة ببلاد القبائل كانت رائدة في إسقاط المشروع الاستعماري وفي رص صفوف الشعب الجزائري، فاعتبر هؤلاء المجاهدون أن أي دعوة لتفريق الصفوف بمنزلة خيانة للوطن. كما عرف عن كل من كريم بلقاسم ومحمدي السعيد وعميروش آيت حمودة ومحمد ولد الحاج وعبد الرحمن ميرة ويوسف اليعلاوي وغيرهم كثيرون. وقد

كانت جهود العقيد عميروش ذات بعد استراتيجي عندما صمم على تصفية الطابور الخامس في الولاية الثالثة وبادر بإرسال وفود الطلبة إلى المشرق لتكوين إطارات تساعد على إقامة دولة جزائرية حرة ذات شخصية إسلامية وهوية عربية، وبالفعل فقد عاد الكثير منهم بعد استكمال تعليمهم بالمشرق وساهموا في بناء مؤسسات الدولة الجزائرية وعملوا جاهدين على المحافظة على هويتها العربية الإسلامية، منهم الأستاذ محمد الشريف خروبي ابن إحدى زوايا بلاد القبائل وتلميذ جمعية العلماء المسلمين والذي كان له شرف تطبيق برامج المدرسة الأساسية التي وضعت حدا لهيمنة اللغة الفرنسية على المدرسة الجزائرية ووحد التعليم واستكمل تعريبه، وهذا ما جعله عرضة لنقمة الأوساط الفرنسية التي شهّرت بتمسكه بثقافته العربية إلى حد وصفه بأنه كان يرفض التحدث بالقبائلية حتى مع العجائز[60].

كل هذه الجهود استطاعت إحباط المشروع الاستعماري القائم على السياسة البربرية بل أدت إلى نتائج معاكسة له، فقد عمقت الروح الإسلامية وساعدت على انتشار اللغة العربية وتلاحم أفراد الشعب الجزائري قبائل وغير قبائل، وهذا ما استخلصه المؤرخ الفرنسي شارل روبير آجرون في دراسته للسياسة البربرية لفرنسا عندما اعتبر أن: «السياسة البربرية لفرنسا في الجزائر كان مآلها الفشل إذ لم تعمل سوى على تقريب الجزائريين وتوحيدهم وتكاتفهم»[61].

د- النخبة البربرية بالجزائر

أثمرت جهود الإدارة الفرنسية ومساعي الضباط الفرنسيين في نقل الفكرة البربرية من أدراج الإدارة الفرنسية ومن مكاتب دارسي البربريات إلى شريحة من المثقفين الجزائريين المتفرنسين من بلاد القبائل[62]، تخرج جلهم من المدارس اللائكية والمؤسسات التبشيرية، وقد كان في طليعة هؤلاء المجموعة الأولى التي تكونت بمدرسة المعلمين ببوزريعة (الجزائر) وشكلت ما يعرف بمعلمي الفرنسية القبائل (Instituteurs) (kabyles)، ومنهم: حسين لحمق وفرعون والسعيد بوليفة وقرباي والشريف بن حبيلس وبن سديرة وغيرهم ممن وجدوا في «نشرة التعليم الأهلي» (Bulletin de l'enseignement des indigènes) منبرا يعبرون فيه عن مواقفهم وقناعاتهم، ولم تلبث أن عُززت صفوف هذه المجموعات مع تخرج أعداد كثيرة من متقبلي الفكرة البربرية من طلاب المدارس الثانوية وخريجي جامعة الجزائر وبعض الجامعات الفرنسية، فأصبحوا مع نهاية الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥) يشكلون نخبة ذات ميول بربرية فرضت حضورها ببلاد القبائل وتأثيرها في أوساط المهاجرين القبائل بفرنسا.

ومع هذا التطور ظل تأثير النخبة البربرية محدودا في فترة ما بين الحربين (١٩١٩ - ١٩٣٩) بعد أن رأى فيها سكان القبائل مجرد مجموعة من الأفراد المتغربين المصطبغين

بالثقافة الفرنسية والمتحمسين لها. ومما زاد في عزلة هذه الجماعة الفرانكوفيلية (Francophiles) ذات النزعة البربرية تأثرها بالحركة التبشيرية وتقبلها لفكرة التجنس وإيمانها الأعمى بالمبادئ اللائيكية والقيم العلمانية ومزجها بين تمجيد الماضي البربري والواقع الاستعماري الفرنسي وارتباط تصورها للهوية البربرية بالنزعة الفرانكوفونية. على أن هذه النخبة رغم ابتعادها عن أوساط الشعب فإنها وجدت الترحيب والتنويه من الفرنسيين الذين اعتبروا ظهورها تكريسا لنجاح السياسة الفرنسية الجديدة بالجزائر القائمة على تكوين نخبة تمثل الطبقة الوسطى وترتبط بالخدمات التعليمية والاجتماعية. وبدأ الحديث في وسائل الإعلام الفرنسية عما أطلقوا عليه تسمية «المعجزة القبائلية» (Miracle kabyle) التي انبثقت من جهود المعلم القبائلي (Maître d'école) المعروف محليا بـ «الميد يكول» من أبناء بني يني وتيزي راشد، واعتبروا أن السياسة الفرنسية في الجزائر سوف تحدد معالم المستقبل وتتحكم في توجه الجزائر(٦٢).

لكن التطورات التي عرفتها الجزائر من خلال نشاط الحركة الوطنية السياسية والإصلاحية لم تسمح لمنظري السياسة البربرية، من الفرنسيين ومن تأثر بهم، بأن يحققوا ما كانوا يأملونه بعد أن عجزوا عن نشر أفكارهم بين سكان بلاد القبائل ولم يستطيعوا الحد من تأثير الزوايا ودعوة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ونشاط منظمة النجم وبعدها حزب الشعب، فلم يجدوا بدا من الانطواء على أنفسهم مع التشبث بأفكارهم التي تحولت مع الوقت إلى قناعات أيديولوجية غير قابلة للمراجعة وأفكار من قبيل المسلمات التي لا تقبل النقاش، وهي وإن كانت في مجملها تعبر عن المبادئ التي قامت عليها سياسة فرنسا البربرية إلا أنها أصبحت تهدف إلى بلورة موقف متميز معاد لثوابت الشعب الجزائري المتمثلة في أخوة الوطن وعقيدة الإسلام وثقافته. ويمكن تحديد أفكار ومبادئ الدعوة البربرية كما تمثلتها النخبة البربرية في النقاط التالية:

١- اتخذ دعاة البربرية مبدأ معاديا للثقافة العربية باعتبارهما عوامل هدم للهوية البربرية وطمس للتراث البربري، وقد أدى بهم هذا الموقف إلى حد تجاهل الماضي الإسلامي للجزائر ورجاله وتراثه ومساهمته ودفعهم ذلك إلى القيام بحملة عدائية ضد اللغة العربية التي أصبحت محل تشهير وسخرية واعتبرت في نظرهم عنوان تأخر ورجعية، فضلا عن كونها لغة غزاة ووسيلة قمع وعنف تمارس ضد الطفل القبائلي الذي يفرض عليه تعلمها في المدارس، وقد ذهب لحواسن معتوقي، وهو من غلاة النزعة البربرية، إلى حد اعتبار اللغة العربية لغتين: لغة ميتة، ليس لها سوى القليل من الحيوية، وهي عاجزة عن تكوين مجموعة لغوية مثلها مثل اللاتينية عند الشعوب المسيحية، ولغة حديثة، اصطنعتها الصحافة في المشرق وهي لغة مجهولة لدى سكان شمال أفريقيا الذين قد لا يعرفون مفردة واحدة من ألف كلمة منها، حسب

زعمهم[64]. وفي هذا التوجه المعادي للثقافة العربية توصل فريق الدراسات البربرية بفانسان (فرنسا) بالدعوة البربرية إلى قناعة مفادها: «أن اللغة الأم في الجزائر هي العربية الدارجة والقبائلية والثقافة الحقيقية الجديرة بالاعتناء هي الثقافة الشفوية وأن اللغة العربية الفصحى لغة دخيلة أو مستوردة، وهي في حقيقتها لغة ميتة أو غريبة عن المجتمع الجزائري، وليس لها أي صلة بالعربية الدارجة؛ لأنها تمثل ثقافة بورجوازية مهيمنة ومكرسة للانفصال الاجتماعي والتمايز الطبقي، وهذا ما يجعلها تعبر عن الطبقات المهيمنة في المجتمع»[65].

وبهذا الموقف من العربية يتبنى دعاة البربرية طروحات الشيوعيين الفرنسيين، فمنذ ظهور الحزب الشيوعي الفرنسي (١٩٢٠)، اتخذ الشيوعيون موقفا معاديا للغة العربية لا لسبب سوى لأنها لغة القرآن وحاضنة الفكر الإسلامي والقيم الدينية، مما يكسبها قداسة وبعدا روحيا يتنافى في نظرهم والأفكار التي يدعون إليها. ولهذا السبب دعا أغلب الشيوعيين إلى التخلي عن العربية (الفصحى) وتعويضها بالعربية الدارجة والقبائلية والفرنسية باعتبارها اللغات الأم للطفل الجزائري العربي والقبائلي والفرنسي، وهذا ما أصبح يردده الكثيرون من المعادين للعربية ومنهم المغني القبائلي إيدير الذي اعتبر اللغة العربية أجنبية عنه محتجا على من يخالفه الرأي بقوله: «كيف أن أمي لا تفهم نشرات الأخبار بالعربية الفصحى على شاشة التلفزيون الجزائري، وهم يقولون أنها «لغة» جزائرية»[66].

٢- اعتبار القبائلية لغة لجميع الناطقين بالبربريات وجعلها في موقف تنافس وعداء مع العربية: وقد انطلقوا - في هذا الموقف الرامي إلى التخلي عن العربية وإحلال القبائلية مكانها - من مسلمة بسيطة لعلماء اللغة واللسانيات هي: أن ليس هناك فرق بين اللغة واللهجة وأن كل لهجة تقوم على الأصوات الكلامية وتعتمد على الاصطلاح والاتفاق الجماعي للمجموعة التي تتكلمها يمكن لها أن ترتقي من مستوى الكلام (الثقافة الشفوية) إلى التعبير عن حاجات المجتمع ووظائفه الحيوية (اللغة المدونة) فيما يتعلق بالتفاهم والتعامل والتبادل، وبالتالي يمكن الارتقاء بلسان تخاطب من لهجة إلى لغة ما دامت كل لغة كانت في أساسها لهجة، دون الأخذ بعين الاعتبار الواقع اللغوي ببلاد المغرب المتميز بتعدد اللهجات البربرية وبكون اللغة العربية أصبحت منذ قرون أداة تفاهم ووسيلة تواصل بين الغالبية الساحقة من السكان، ولم يقف الأمر عند دعاة البربرية عند هذا بل ذهبوا إلى حد العمل على تصفية اللسان القبائلي من الألفاظ والتراكيب العربية وتعويضها بألفاظ مشتقة من الفرنسية أو موجودة بلهجة التوراق بحجة عدم تأثرها بالعربية[67]، ولعل نفورهم من اعتماد تحية الإسلام (السلام عليكم) واستبدالها بعبارة «آزول فلاون» دليل على هذا التوجه، رغم أن عبارة السلام عليكم شائعة في اللهجات البربرية الأخرى، كما أن تفضيل الحرف اللاتيني - الذي له صبغة لائكية مسيحية والتخلي عن حرف لغة الإسلام (العربية)



الذي استعمله البربر قديما بحجة عالمية الحرف اللاتيني وسهولة استعماله - لدليل آخر على الارتباط الوثيق لدعاة البربرية بالثقافة الغربية وعلى الرغبة التي تدفعهم لقطع أواصر الارتباط بالثقافة العربية والإسلامية.

٣- تفسير التاريخ وفهمه انطلاقا من الموقف المعادي للماضي العربي الإسلامي للجزائر: بحجة ضرورة مصالحة الجزائر مع هويتها البربرية وماضيها الوثني - الذي يرمز إليه ماسينيسا - وقيمها المسيحية التي يمثلها القديس أوغسطين، فحاولوا تجاهل الفترة الإسلامية من تاريخ الجزائر التي تبدأ بالفتح الإسلامي في القرن السابع الميلادي معتبرين أحداثها غير معبرة عن طموحاتهم لارتباطها بالهوية العربية الإسلامية للجزائر، منتقصين من مكانة رجالها ومنزلة أبطالها من أمثال طارق بن زياد والناصر بن علناس وأبو زيد صاحب الحمار ويوسف بن تاشفين ومحمد بن تومرت وعبد المؤمن بن علي الكومي ويغمراسن وأبو حمو والشيخ الحداد والإمام عبد الحميد بن باديس وغيرهم، وآثروا القفز على الفترات الإسلامية بالجزائر ليتغنوا بالشخصيات البربرية لما قبل الإسلام أمثال ماسينيسا ويوغرطة وتاكفاريناس والكاهنة وكسيلة، واعتبروهم رموزا للمقاومة الوطنية، وذهب بهم الحماس إلى حد استبدال اسم محمد بماسينيسا وفاطمة بالكاهنة، فكانوا أشبه شيء بمن ينكر أباه ليعتز بجده وينسى أمه ليتذكر جدته، بل انتهى بهم هذا التوجه إلى حد رفض تسمية المغرب العربي مع كونها مصطلحا شائع الاستعمال يتجاوب وطموحات شعوب المنطقة، فاعتبروها جناية في حقهم وإهانة لشخصيتهم، فالمغرب العربي عند لحواسن معتوقي: «خدعة ساذجة لا يصدقها من سكان شمال أفريقيا من له ذرة من عقل، لكون هذا الشمال الأفريقي لم يكن المشرق العربي، بل كان دائما بعيدا عنه»[٦٨].

وفي هذا السياق كتب أحد دعاة البربرية يستنكر كلمة المغرب العربي: «يا لسخرية القدر، بالرغم من كونه ليس عربيا لا عرقيا ولا ثقافيا من الأزمنة الغابرة إلى اليوم... لا يتجاوز العنصر العربي بينهم النسبة القليلة جدا... وإن كان في المجال اللغوي هناك اختراق قوي للغة العربية التي تبنتها أغلبية بربر السهول والممرات وكذلك المدن الكبرى، فاليوم هناك خلط بين العربي والناطقين بالعربية، فمهما كانت أكثرية مغاربية الناطقين بالعربية فإن ذلك لا ينفي كونهم بربرا أصلا بدليل تواجدهم على هذه الأرض منذ ما قبل التاريخ»[٦٩].

وتوازيا مع نفيهم لـ «مغرب عربي» نادوا بـ «شمال أفريقي بربري» تجاوزا لواقعه العربي ورجوعا إلى أصله البربري وطرحوا فكرة «الرابطة البربرية» (Panberbérisme) التي روجت لها، في الستينيات (١٩٦٠ - ١٩٧٠)، الأكاديمية البربرية بباريس ووضعت لها اسما مستحدثا

«تامزغا» على اعتبار أن الفضاء البربري يمتد من سيوه بصحراء مصر الغربية إلى جزر الخالدات (الكناري) في المحيط الأطلسي، وبذلك أدى التفسير التاريخي للمسألة البربرية إلى تجاوز الحدود الأصلية لدول المغرب إلى بعد جهوي يشمل شمال القارة الأفريقية[٧٠]، متناسين بل منكرين التلاحم البشري والتواصل الحضاري بين المشرق العربي وبلاد المغرب منذ أقدم العصور وحتى الآن.

٤- الارتباط بقيم الثقافة الغربية: ففي سعيهم من أجل إحياء اللغة البربرية والمحافظة عليها واستعمالها وتعليمها، حرصوا على رفع شعارات المواطنة واللائكية والديموقراطية وربطوا دعوتهم بالمفهوم اللائكي وحقوق الإنسان وحق الاختلاف التي اعتبروها من الشروط الضرورية التي تسمح لهم بتطوير شخصيتهم وإحياء ثقافتهم بعيدا عن تأثير الإسلام والعربية، وهذا ما نادى به أحد دعاة البربرية ودارسيها وهو الأستاذ سليم شاكر الذي يرى أن حل المسألة البربرية في الجزائر وكذلك في المغرب الأقصى يفترض تطورا ديموقراطيا[٧١]، وصرح به حسين آيت أحمد عندما اعتبر أن أحداث القبائل (الربيع البربري، ١٩٨٠) لحظة من لحظات الحقيقة التي أظهر فيها الشباب القبائلي أن حقوق الإنسان هي أولا أن يكون إنسانا وأن يناضل سلميا من أجل الديموقراطية، فمطلب المحافظة على البربرية أفهم الجزائريين أكثر بأن الرهان هو الديموقراطية الحقة السياسية والثقافية[٧٢].

وفي هذا المجال يجدر بنا أن نلاحظ أن الجهد العلمي الصادق لخدمة الثقافة البربرية ظل متواضعا بالنسبة للنشاط الدعائي والعمل السياسي المرتبط به، فإذا استثنينا بعض المحاولات التي تدخل في نطاق البحث اللغوي والدراسات اللسانية لدارسي البربريات في الجزائر، فإن الإنتاج الحقيقي لدعاة البربرية كان موجها في أساسه لخدمة الثقافة الفرنسية وتعزيز مكانة اللغة الفرنسية، ولعل نشاط كل من مولود معمري (ت. ١٩٨٧) وكاتب ياسين يوضح لنا مدى ارتباط الدعوة البربرية بالثقافة الفرنسية، فكاتب ياسين الذي تحول من موقف وطني متمسك بالعربية والإسلام في شبابه الباكر كما عبر عنه في محاضرته الشهيرة «حول الأمير عبد القادر الجزائري» بباريس سنة ١٩٤٧[٧٣]، إلى عداء صريح لكل ما ينتمي إلى العربية والإسلام بفعل تأثره بأستاذه الفرنسي للتاريخ والجغرافيا، وهذا ما جعله يتبنى طروحاتهم فيما بعد، فلم يعد يفرق بين الاستعمار الفرنسي والانتساب العربي الإسلامي في روايته الشهيرة «حرب ألفي عام» و«يا محمد خذ حقيبتك»، وهذا ما صرح به لمجلة جون آفريك بقوله: «...كما ثرت ضد الجزائر الفرنسية، أثور اليوم ضد جزائر إسلامية، إنهم (أي دعاة العربية والإسلام) يكبلون شعبنا بواسطة الدين واللغة، أنا لست عربيا ولا مسلما أنا جزائري»[٧٤]. كما أصبح يرى في تعليم اللغة العربية انقطاعا عن الأصول وتكريسا للضياع، وهذا ما عبر عنه في مجلة «نجمة» (Nedjma) عندما وصف

إحساسه في المدرسة ونظرته إلى الحياة بقوله: «لقد ظل إحساسي بالقطيعة، حتى أيام النجاح في الدراسة، يمتلكني ويهزني ويشعرني بالانقطاع عن أصولي. إنه ذلك الإحساس بالنفي والاغتراب الداخلي الذي لا يقرب أبدا الولد إلى أمه، بل ينزعه ويبعده عن كل صلة دموية بأصوله، ويشعره بالمهانة من جراء إبعاده وحرمانه من لغته... وبذلك فقدت كل شيء ضيعت أمي ولغتي، إنها الكنز الذي لا يقبل الفساد ومع ذلك فقد أفسدوهما»[٧٥].

أما الكاتب مولود معمري الذي اشتهر بأدبه الفرنسي الرفيع وبدفاعه المستميت عن الثقافة البربرية وعمله الدؤوب لتدوين تراثها بالحرف اللاتيني خاصة عند توليه إدارة مركز أبحاث الأنثروبولوجيا وما قبل التاريخ والإثنوجرافيا بالجزائر (C.R.A.P.E.) أو أثناء تدريسه للثقافة البربرية بجامعة الجزائر وخاصة ما عبر عنه في روايته «الربوة المنسية» (La colline oubliée) التي لا نجد أحسن تعبير عنها من تعليقات النقاد الفرنسيين عند صدورها بباريس سنة ١٩٥٢، فقد كتب عنها الناقد الفرنسي روني حانون (René Hanon): «إن التجاوب العميق الذي شعرنا به مع هذه القصة «الربوة المنسية» المعبرة عن العواطف القبائلية، إن دل على شيء فإنما يدل على أواصر القرابة الفكرية التي تربط الشعبين الفرنسي والقبائلي، وهذا الأمر ليس بالمستغرب لدى من يعرف ما يمكن أن تتفتق عنه العبقرية البربرية من روائع خاصة إذا سكبت في قالب اللغة الفرنسية»[٧٦]. كما علق عليها الكاتب الفرنسي موريس موليه بهذه العبارة: «لقد أبى مولود معمري إلا أن يظل وفيا لأصله القبائلي، وقد نهل من معين اللغة الفرنسية حتى برع فيها، وها هو يعبر عما خلفه أجداده الأولون»[٧٧]. كل هذا ما يجعلنا نؤكد، على ضوء الحقائق الملموسة، أن جهد دعاة البربرية في الجزائر من أجل البربرية يعتبر متواضعا بل هامشيا بالنسبة إلى ما ساهموا به من إنتاج علمي سوف يظل رافدا غنيا للثقافة الفرنسية وخاصة في مجالات الإثنوجرافيا والأنثروبولوجيا وما قبل التاريخ والثقافات الشعبية والفولكلور المحلي، ولعل أوضح دليل على ذلك تصفح أعداد «دائرة المعارف البربرية» (Encyclopédie berbère) والرجوع إلى الدراسات التي ينشرها المركز الوطني للبحث العلمي الفرنسي (C.N.R.S.) في «حوليات شمال أفريقيا» (Annuaire de l'Afrique du Nord) والاطلاع على النشريات البربرية الصادرة بفرنسا مثل نشرة «الربيع» (Tafsut) و«نجمة» (Nedjma) وغيرهما.

هـ - نشاط الحركة البربرية في الجزائر (١٩٤٨ - ٢٠٠٣)

عرفت الجزائر منذ نهاية الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥) أحداثا سياسية مهمة وتطورات اجتماعية وثقافية خطيرة ساعدت النخبة ذات النزعة البربرية على أن تخرج من عزلتها وتحاول فرض وجودها في الساحة الجزائرية بكسب المؤيدين لها في بلاد القبائل وفي أوساط المهاجرين في فرنسا، وتتلخص هذه الأحداث والتطورات في النقاط التالية:

١- انتشار التعليم الفرنسي في الجزائر وتعمق الثقافة الغربية في أوساط المتعلمين وتزايد أعداد المهاجرين إلى فرنسا، وخاصة من بلاد القبائل حيث أصبحت الفرنسية والهجرة إلى فرنسا من الظواهر المؤثرة في المجتمع المحلي، وهذا ما ساعد على ظهور جيل جديد من الشباب البعيد عن التقاليد المتوارثة والقيم المعبرة عن الثقافة العربية الإسلامية، فأصبح جل الشباب المتعلم والمتخرج من المدارس الفرنسية معجبا بالأفكار الأوربية وخاصة منها المبادئ الشيوعية الداعية للثقافات الشعبية والمعادية للثوابت الحضارية للشعب الجزائري، فالشعب الجزائري في رأي الشيوعيين حسب تعبير زعيمهم موريس طوريز (Maurice Thorez): «مجرد مجموعات من الفرنسيين والعرب والبربر واليهود... بصدد التكوين تاريخيا ليصبحوا أمة بفضل جهود الجمهورية الفرنسية»[٧٨].

٢- انشغال الحركة الوطنية الجزائرية بجناحيها: السياسي (حزب الشعب - حركة انتصار الحريات الديموقراطية)، والإصلاحي (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) بمواجهة الواقع الاستعماري الفرنسي بالجزائر وما يفرضه من تحديات، فأحجم مناضلو الحركة الوطنية عن الخوض في أفكار دعاة البربرية واعتبروها أسلوبا من أساليب الاستعمار، فلم يروا فائدة في طرحها للنقاش وآثروا الاحتراز منها والاكتفاء بمراقبة ذاتية للمناضلين حتى لا تؤثر في وحدة الصف وتتحول إلى أداة فرقة وتقسيم في يد الإدارة الاستعمارية الفرنسية، وهذا ما سمح لدعاة البربرية بحرية التحرك والدعاية والانتشار والتسلل إلى خلايا حزب الشعب.

٣- الانسداد الذي وصل إليه التيار الاستقلالي في الحركة الوطنية الجزائرية بفعل رفض الفرنسيين الاستجابة إلى أدنى المطالب الجزائرية، الأمر الذي أدى إلى أزمة في صفوف حزب الشعب - حركة انتصار الحريات الديموقراطية تعمقت مع أحداث الثامن ماي ١٩٤٥ الدموية بعد أن تخلى الحزب عن المناضلين المجندين في المنظمة السرية للحزب بعد اكتشافها (١٩٥١)، وهذا ما أدى إلى حدوث شقاق بين المناصرين للزعيم مصالي الحاج والمساندين للجنة المركزية للحزب (١٩٥٢)، وقد تعمق هذا الانشقاق بفعل تراجع الجيل الأول من المناضلين العصاميين الذي يمثله مصالي الحاج ووصول الجيل الثاني من المناضلين ذوي الثقافة الفرنسية، مما خلق اضطرابا في أوساط المناضلين الأمر الذي ساعد دعاة البربرية على التسلل إلى الحزب والتموقع في أماكن المسؤولية وتجنيد المؤيدين لأفكارهم، في أوساط النخبة المتغربة الليبرالية واليسارية، والعمل على تحويل اتجاهه وجعله وسيلة لنشر أفكارهم وفرض طروحاتهم.

٤- انعكاسات كارثة فلسطين على الرأي العام الجزائري (١٩٤٨) التي عرفت الدعاية الفرنسية كيف تستغلها للإمعان في إهانة العرب ووصفهم بالجبن أمام الآلة الحربية اليهودية وذلك بهدف إبعاد الجزائريين عن التفاعل مع إخوانهم العرب في المشرق وجعلهم



يشككون في مدى جدية الانتساب إلى أمة العرب، وهذا ما أثار التساؤل والحيرة لدى كثير من مناضلي الحركة الوطنية الجزائرية وسمح لدعاة البربرية أن يجاهروا بكون الجزائر ليست عربية ولا شرقية وإنما هي بربرية، وسمح للعناصر البربرية المندسة في حزب الشعب بأن تصب نقمتها على قيادة الحزب الملتزمة بالثوابت الحضارية للشعب الجزائري بحجة أنها: «لم تحدد استراتيجيتها على ضوء الحقائق (أي الواقع البربري) وإنما فضلت الهروب نحو سراب الشرق حتى أصبح - حسب قولهم - حلق ذقن عزام باشا الأمين العام للجامعة العربية حدثا سياسيا»[٣٦].

سمحت هذه الظروف والتطورات التي عرفتها الجزائر بعد الحرب العالمية الثانية للجيل الثاني من دعاة البربرية المتشبع بالثقافة الفرنسية والمتأثر بالأفكار اليسارية، أن يتجاوز عقدة الجيل الأول الذي ظلت لديه النزعة البربرية قناعة ذاتية وموقفا شخصيا، فحاول الظهور على مسرح الأحداث والدعوة إلى الأفكار التي تقوم عليها المسألة البربرية، في محاولة لكسب الأنصار وتكوين رأي عام ببلاد القبائل يتجاوب معهم، فتوجه اهتمامهم نحو التنظيم السياسي للحركة الوطنية الجزائرية (حزب الشعب - حركة انتصار الحريات الديموقراطية) لمصداقيته ولحضوره القوي في أوساط المهاجرين القبائل في فرنسا، ولكونه أفضل وسيلة لإضفاء الشرعية على الحركة البربرية وإعطائها طابعا وطنيا كفيلا بالتستر على ارتباط الفكرة البربرية بالمشروع الاستعماري الفرنسي بالجزائر الذي نظر لها ورعاها وساعدها على النمو والتطور كما سبق التعرض إلى ذلك.

وفي إطار هذا التوجه عبرت الحركة البربرية منذ الحرب العالمية الثانية عن نفسها من خلال ثلاثة أحداث غاية في الأهمية بالنسبة لتوجهات الجزائر حاليا ومواقفها مستقبلا، **أولها**: «الأزمة البربرية لحزب الشعب الجزائري (١٩٤٨ - ١٩٤٩)» التي اتخذت طابعا سياسيا كاد أن يكون له تأثير سلبي على المشروع التحرري الجزائري، **وثانيها**: أحداث عام ١٩٨٠ المعروفة بـ «الربيع البربري» ذات الصبغة الثقافية التي عرقلت الملف الثقافي الجزائري وساهمت في الحيلولة دون وصول الجزائر إلى مرحلة السيادة الثقافية، **وثالثها**: «حركة العروش» الحالية (٢٠٠١) والتي رفعت شعار المواطنة واتخذت مظهرا أثر على واقع بلاد القبائل قد يكون له انعكاس سلبي على بنية الشعب الجزائري وهويته العربية الإسلامية. كل هذه الأحداث كانت معالم بارزة في تطور القضية البربرية في الجزائر، وهذا ما نحاول تعريف القارئ به في النقاط التالية:

أولا: الأزمة البربرية لحزب الشعب الجزائري (١٩٤٨ - ١٩٤٩)

قامت بها مجموعة من الشباب ببلاد القبائل ذوي الثقافة الفرنسية، ووجدت لها بيئة ملائمة في أوساط المهاجرين القبائل بفرنسا والمهيكلين في فيدرالية فرنسا لحزب الشعب -

حركة انتصار الحريات الديموقراطية (P.P.A-M.T.L.D). وقد انطلقت هذه المجموعة في عملها من خلال خطة محكمة تقوم على استقطاب الطلبة القبائل بالثانويات وبجامعة الجزائر ومدرسة المعلمين ببوزريعة المتميزين بنشاطهم والمعروفين باندفاعهم وحماسهم. وبالفعل استطاع العديد من هؤلاء الطلبة، ذوي الميول البربرية، أن يتولوا مسؤوليات في أجهزة حزب الشعب - حركة الحريات الديموقراطية - وأن يندمجوا في الجناح العسكري للحزب سنة ١٩٤٧، والمتمثل في المنظمة السرية لحزب الشعب، وأن يحصلوا على عضوية اللجنة المركزية للحزب، وكان في طليعة هؤلاء الطلبة علي فرحات ويحيى هنين ومبروك الحسين والصادق هجرس وبلعيد آيت مدري وحسين آيت أحمد وعمار أوصديق وعمار ولد حمودة ووالي بناي وعلي عيماش (توفي ١٩٤٦) والمدرس السعيد أويوزار وغيرهم[٨٠].

هذا، وقد كان لتراجع الجيل الأول لمنظمة النجم وحزب الشعب، ووصول الجيل الثاني إلى أماكن المسؤولية، فرصة سانحة لدعاة البربرية للتسلل إلى الحزب والتحكم في أجهزته والتأثير في توجهاته والإطاحة بالخط الذي يمثله مصالي الحاج، الذي يصر على التمسك بثوابت الشعب الجزائري، المتمثلة في الهوية العربية والانتساب للحضارة الإسلامية، وبالفعل انصب اهتمام دعاة البربرية على التموقع في أماكن المسؤولية في الحزب، والتخطيط لتحويل اتجاهه، وجعله وسيلة لنشر أفكارهم وفرض أطروحاتهم. وقد بدأت خيوط المؤامرة تنسج بفعل تواطؤ بعض المسؤولين في الحزب وتعاطفهم مع الدعوة البربرية، ومنهم والي بناي عضو اللجنة الفيدرالية لحزب الشعب بفرنسا، الذي أقنع مسؤول المنظمة الوطنية للحزب بالجزائر أحمد بودة بضرورة تقديم يد المساعدة للطالب محند سي علي يحيى الملقب بسي رشيد، فتمت عملية نقله إلى فرنسا بدعوى أنه مطارد من الشرطة الفرنسية التي لم تكن بعيدة عن هذه الخطة، إذا عرفنا أن الوالي العام للجزائر شاتينيون كان لا يتردد في استعمال كل الوسائل للحد من المد التحرري الذي يمثله حزب الشعب آنذاك، ويسعى جاهدا إلى إشعال نار الفتنة داخل الحزب، وهذا ما تكفل به المكتب الثاني (المباحث الفرنسية) عندما وضع خطة يكون دعاة البربرية أحد وسائلها لتلغيم الحزب والضغط على أعضائه، بعد أن بلغ عدد المنتسبين له في الجزائر وفرنسا حوالي عشرين ألف مناضل، منهم ٤٠٠٠ بالجزائر العاصمة و١٢٠٠ ببلاد القبائل[٨١].

بدأ الطالب سي رشيد نشاطه الحزبي بفرنسا في ربيع عام ١٩٤٨، فأظهر كفاءة وجرأة وحنكة أهّلته إلى أن يرتقي بسرعة في مراتب المسؤولية في حزب الشعب، فأصبح عضوا في اللجنة المديرة لفيدرالية الحزب بفرنسا، وعندها أظهر ميوله الجهوية، وبدأ في التهجم على توجهات قيادة الحزب، ولم يعد يتستر على نزعته البربرية، أو يتحرج من تفضيل القبائل على غيرهم من الجزائريين دون اعتبار للكفاءة والمقدرة؛ وهذا ما سمح له -في غفلة من غالبية



مناضلي الحزب وقيادته - أن يحيط نفسه بالمناضلين المتعاطفين معه، وأن يضع المؤيدين له في مراكز المسؤوليات بفيدرالية الحزب بفرنسا، الأمر الذي مكنه من السيطرة الفعلية على خلايا الحزب وساعده على وضع يده على جريدة الحزب «النجم الجزائري» (L'Etoile Algé-rienne) التي تحولت إلى منبر لأفكاره، وقد ذهبت به الجرأة إلى حد الطعن في قيادة الحزب والتهجم عليها، عندما كتب تعليقا في جريدة النجم الجزائري بعنوان: «الجزائر ليست عربية ولكن جزائرية» ردا على المذكرة التي تقدمت بها قيادة حزب الشعب الجزائري إلى جمعية الأمم المتحدة سنة ١٩٤٨، والتي جاء في مستهلها: «إن الأمة الجزائرية العربية المسلمة ولدت منذ القرن السابع الميلادي مع الفتح الإسلامي...»، ولم يفت سي رشيد في تهجمه على هذه المذكرة أن يندد بقيادة الحزب بهذه العبارة التي تنم عن روح التحدي: «منذ بعض الوقت ورد على لسان بعض الزعماء ما يؤكد أن الجزائر عربية، فهذه الأقوال ليست فقط غير صحيحة، ولكن الفكرة التي تعبر عنها بلا شك عنصرية إمبريالية»[٨٢].

أصبح الخطر الذي يمثله هذا التوجه المصطبغ بالنزعة البربرية والمعادي لمبادئ الحزب ماثلا للعيان عندما تمكن سي رشيد من إقناع لجنة فيدرالية فرنسا أن تقر لائحتين تدينان ما اعتبره «خرافة الجزائر العربية الإسلامية»، وهذا ما طرح مسألة هوية الجزائر للنقاش وأثار حولها التساؤل بين مناضلي حزب الشعب انطلاقا من المفهوم الشيوعي للمسألة القومية الذي يقر بأن لكل أمة خصوصيتها اللغوية وهويتها الثقافية ولكل شعب حقه في الاستقلال حسب النموذج السوفيتي، الأمر الذي أشاع القلق في أوساط المناضلين وجعل بعضهم يتشكك في النهج السياسي للحزب القائم على فكرة وحدة الشعب الجزائري وعلى انتمائه العربي الإسلامي الصريح الذي لا نقاش فيه.

أصبحت قيادة حزب الشعب وغالبية مناضليه في حيرة من أمرهم مع اندفاع سي رشيد ومقربيه في طرح أفكارهم التي اصطبغت بنزعة عنصرية تلصق بالإسلام صفة الرجعية والتأخر وترى في العرب أجانب غزاة ولغتهم دخيلة وميتة وتاريخهم مرتبط بالاستبداد والظلم[٨٣]، ومرد حيرة المناضلين أنهم كانوا لا يرغبون في التشهير بهذه التصرفات غير الوطنية والسلوكات غير المقبولة لسي رشيد وأنصاره خشية انعكاسها على وحدة مناضلي الحزب وخوفا من أن تستغلها السلطات الفرنسية، لكن مع مغالاة دعاة البربرية واتهامهم لقيادة الحزب بالانحراف وسعيهم لتفريق صفوف الوطنيين أصبح مستقبل الحزب مرهونا بمعالجة هذه القضية ووضع حد لهذا الوضع، فاتخذت الإجراءات الضرورية للتصدي لهذا الانحراف بعد أن أعلم أحمد بودة عضو اللجنة المركزية رسميا قيادة الحزب بنشاط دعاة البربرية.

أوكلت قيادة الحزب الأمر إلى لجنة مؤلفة من نخبة من المناضلين أغلبهم من بلاد القبائل كان في طليعتهم شوقي مصطفاي عضو المكتب السياسي وصادق سعيدي المعروف لدى سكان

جرجرة بنزاهته ومواقفه وبلقاسم راجف ومحمد خيذر. يعاضدهم في مهمتهم هذه فوج من طلبة الحركة الوطنية بفرنسا لسنة ١٩٤٨ - ١٩٤٩ مؤلف من مصطفى الأشرف وعبد المالك بن حبيلس وعلي مرداسي ومحيي الدين حفيز وصغير مصطفاي ومحمد بن قطاط والتونسيين الطاهر قيقة ومصطفى لفيفا[٨٤]؛ وعندها شعر دعاة البربرية بالخطر وحاولوا الحيلولة دون اتصال اللجنة، المكلفة بتطهير الحزب، بالمناضلين في خلايا الحزب وخاصة في منطقة باريس المهمة حيث كان أنصار سي رشيد يسيطرون على ٨٠ في المائة من قسماتها؛ على أن هذه اللجنة نجحت في أداء مهمتها على أفضل وجه بفضل العون الذي وجدته من المناضلين المنتسبين إلى منطقة القبائل الصغرى بدائرتي باريس التسعة عشر والعشرين ومن مناضلي قسمات المدن الفرنسية الأخرى وخاصة ليون حيث كان للمناضل بشير بومعزة دور مشرف في القضاء على الفتنة البربرية.

وبذلك أمكن لحزب الشعب أن يجدد تشكيل فيدرالية فرنسا ويحول اهتمامه إلى الجزائر حيث كان مناضلو الحزب يتعرضون لضغوط دعاة البربرية في بلاد القبائل، فحالف حزب الشعب النجاح في ذلك عندما ضمن تأييد أحد عشر قسمة واضطر إلى حل القسمة الثانية عشر (عين الحمام) التي جاهرت بالعصيان بقيادة ولد حمودة أحد دعاة الحركة البربرية. وبذلك عاد الانسجام لحزب الشعب بعد ثمانية عشر شهرا من النضال المستميت لتطهير قسمات الحزب وخلاياه من المجموعات البربرية، وهذا ما أثبته التقرير العام للجنة المركزية في المؤتمر الثاني لحزب الشعب - حركة انتصار الحريات الديموقراطية المنعقد في مدينة الجزائر (٤-٦ أبريل ١٩٥٣) بهذه العبارة: «اصطدم الحزب بمعضلة داخلية خطيرة وهي البربرية، وليس هنا مجال سرد تاريخ هذا الانحراف التعصبي الملون بالصبغة العنصرية والنزعة الشيوعية، وقد ظهرت هذه النزعة في جامعة (فيدرالية) الحزب بفرنسا ثم بالقطر الجزائري، وقامت بعمل طائفي يرقى إلى التخريب والتمرد المكشوف على الحزب، وقد اتخذت إذ ذاك جميع التدابير الضرورية التي يتطلبها الموقف، وشهر بهذه الفكرة، وتم إخراج الداعون إليها من الحزب»[٨٥].

اضطر دعاة البربرية إلى الانسحاب من حزب الشعب أمام محاصرة الوطنيين لهم ونفور المناضلين من أفكارهم، فحاولوا في بادئ الأمر إحداث انشقاق في حزب الشعب بتأسيس حزب خاص بهم باسم «حزب الشعب القبائلي» (P.P.K.) يتبنى مفهوما قائما على النزعة العنصرية والميول الجهوية والثقافة الفرانكوفونية، لكنهم وجدوا أنفسهم منعزلين عن أوساط الشعب ومتهمين بالخيانة في بلاد القبائل وفي أوساط المهاجرين بفرنسا، بعد أن انكشف أمرهم واطلع المناضلون على خطتهم عندما وقعت مراسلة من سجن الجزائر المدني بين عمر أوصديق ووالي بناي في يد أحد المناضلين فتم التعرف على منشطي هذا الحزب العنصري من

غلاة الدعوة البربرية ومنهم والي بناي وعمر أوصديق وعمار ولد حمودة وصادق هجرس وعلي فرحات الذين لم يتجرعوا مرارة الهزيمة فسلطوا جام غضبهم على مناضلي الحزب وفي مقدمتهم المناضل طاهر لعجوزي الناطق باسم حزب الشعب، مما أدى إلى احتكاكات كانت مثار قلق المناضلين آنذاك، لعل أكثرها إثارة تلك التي أصيب فيها علي فرحات برصاصة مناضل حزب الشعب فرنان حنفي عندما اضطر هذا الأخير أن يبادر بإطلاق الرصاص دفاعا عن نفسه[٥٦].

فضل دعاة البربرية الذين طردوا من حزب الشعب ولم يتمكنوا من إحداث انشقاق فيه باسم «حزب الشعب القبائلي» إلى الابتعاد عن ساحة النضال الوطني والاندماج في الحزب الشيوعي الجزائري الذي تأثروا بطروحاته ووجدوا الترحيب من إطاراته، وبذلك انحصرت الدعوة البربرية وكادت أن تتلاشى مع أحداث الثورة الجزائرية (١٩٥٤ - ١٩٦٢)، بعد أن تحفظ دعاتها على أفكارهم والتزموا بعدم المجاهرة بها خوفا من انتقام المناضلين وحكم الثورة عليهم بالخيانة والعمالة لفرنسا، فضلا عن كون الفكرة في حد ذاتها رهانا خاسرا لا يخدم الدعوة البربرية في المدى البعيد، ولعل هذا ما جعل أحد المناضلين المعروفين بحسهم السياسي وبعد نظرهم للأحداث وهو حسين آيت أحمد يتخذ موقفا حذرا من الأحداث، فرغم اتهامه من بعض المناضلين من أنه العقل المدبر لدعاة البربرية تمالك نفسه ولم يشأ أن يجاهر بموقفه عندما حقق في أمره مناضلا الحزب أحمد بودة وحاج أحمد شرشالي، بل اعتبر القضية مجرد مؤامرة ضد مسؤولي الحزب من القبائل، لكن نزاهته كمناضل وطني صادق مع قناعاته الوطنية جعلته يراجع نفسه ويقر بحقيقة الأمر ويعلن ابتعاده عن العناصر البربرية ويظل ملتزما بالخط الوطني حتى بعد أن نحي من رئاسة المنظمة السرية وعوض بأحمد بن بيلا وحول إلى الشرق لينضم إلى مندوبي حزب الشعب بالقاهرة وهما محمد خيذر والشاذلي المكي.

ومما يلاحظ أن حسين آيت أحمد الذي يسجل له التاريخ أنه يفضل دائما مصلحة الجزائر على حساب قناعاته وميوله، لم ير أخيرا حرجا في التعبير عن تعاطفه مع دعاة البربرية وأن يفصح عن موقفه من الأزمة البربرية لعام ١٩٤٨، عندما كتب في مذكراته : «إلى الشباب المطالبين باللغة البربرية والذين يلوموننا على عدم تمكننا من طرح المشكل اللغوي بهذا المؤتمر (مؤتمر حزب الشعب - حركة انتصار الحريات الديموقراطية المنعقد في شهر فيفري ١٩٤٧)، نوضح ونبين بأننا لم نتهاون في القيام بذلك لأن البربرية نعيشها، ولو كان للحزب سلطة ملموسة لطالبنا بحقنا في كتابة وتدريس اللغة البربرية»[٥٧].

لقد نجحت زعامة حزب الشعب الجزائري ممثلة في الجيل الأول من الحركة الوطنية الجزائرية بزعامة مصالي الحاج (ت. ١٩٧٤) أن تتجاوز القضية التي طرحها دعاة البربرية وأن تستبعد تشكل معارضة منظمة للقيادة المصالية سواء في شكل تسلل لمواقع القيادة أو احتلال



لأجهزة الحزب أو بواسطة إنشاء حزب منافس (حزب الشعب القبائلي)[٨٨]. ويعود نجاح زعامة الحزب في ذلك إلى الاحتكام إلى الضمير الوطني الجزائري واستنهاضه في مواجهة دعاة التفرقة والجهوية بكل عزيمة وصرامة وثبات، بعيدا عن المجاملة والمهادنة وبالاعتماد على الوسائل الممكنة والمتمثلة في التشهير والطرد والمقاطعة، مع الابتعاد عن كل عمل أو سلوك يمس بالتراث الثقافي البربري للجزائر، فتقبل الجميع مظاهر الثقافة الشفوية القبائلية سواء في الكلام أو الخطب أو الفولكلور وحتى الأناشيد الوطنية مثل نشيد «إكر عميس،أو مازي» (Ekker ammis umazi)، باعتبار أن تلك الثقافة المحلية تعبر بصدق عن الوطن الواحد والشعب الواحد والهدف الواحد، هذا في الوقت الذي حرص فيه حزب الشعب وكذلك جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على ترك المبادرة للتصدي للدعوة البربرية إلى أبناء بلاد القبائل المخلصين من مناضلين ومصلحين وشيوخ زوايا وزعماء عشائر لمواجهة دعاة الانحراف، وبالفعل كان رجال منطقة القبائل في طليعة الحركة السياسية والإصلاحية بمنطقة القبائل وبغيرها من جهات القطر الجزائري، وبذلك نجح حزب الشعب في تجاوز القضية التي طرحها دعاة البربرية فوجد لها حلا إداريا وحزبيا وأيديولوجيا لكنه لم يستطع محو مسبباتها واجتثاثها من جذورها، لأنها تتطلب برنامج مجتمع طويل المدى يكون في مستوى تخطيط المشروع الاستعماري الفرنسي، وهذا ما أقر به الحزب عندما اعتبر في تقريره للمؤتمر الثاني (١٩٥٢): «أن البربرية سلاح في يد الاستعمار مادام الاستعمار قائما»[٨٩].

ثانيا: أحداث تيزي أوزو أو الربيع الأمازيغي (٢٠ أبريل ١٩٨٠)

ما كان لأحداث تيزي أوزو المعروفة بالربيع الأمازيجي أن تقع لولا تضافر عوامل عدة مساعدة وظروف ملائمة لعل أهمها أزمة صائفة عام ١٩٦٢ التي ارتبطت باستقلال الجزائر وتميزت بالتنافس الحاد للاستحواذ على السلطة وانتهت بالقضاء على نفوذ الولايات وإقرار النهج الاشتراكي في التنمية واعتماد نظام الحزب الواحد المتمثل في حزب جبهة التحرير الوطني، فاستقرت الأمور بعد تنحية أحمد بن بيلا (١٩٦٥) وتولي هواري بومدين الحكم (١٩٦٥ - ١٩٧٨) الذي نجح في السنوات الأولى من حكمه، بفضل حزمه وتصميمه، في بناء جهاز الدولة الجزائرية وفي انتهاج خطة تنمية طموحة، وهذا ما جعل الجميع يلتزمون بأدبيات الحركة الوطنية الجزائرية ومبادئ الثورة الجزائرية القائمة على وحدة الشعب الجزائري انطلاقا من هويته الوطنية القائمة على الثقافة العربية والعقيدة الإسلامية، كما كان المشروع البومديني المتمثل في الثورات الثلاث: الصناعية والزراعية والثقافية منطلقا لحركية اقتصادية واجتماعية سمحت بإيجاد توازن بين شرائح المثقفين بالفرنسية والعربية، بحيث احتكر المتفرنسون مجال النشاط الاقتصادي المربح والعلمي والإداري المؤثر، فتحكموا بذلك في أجهزة الدولة وتموقعوا في مفاصل النظام، وشغل المعربون الوظائف الدينية والتعليمية وقنعوا

بالمهام الثقافية والحزبية آملين أن مكانتهم سوف تتدعم وأوضاعهم سوف تتحسن مع استكمال تعريب التعليم والإدارة، فاستقرت الأمور بالجزائر ظاهريا وظل التوازن قائما لمدة ناهزت عشرين سنة (١٩٦٥ - ١٩٨٥)[٩٠]، لكن فشل مشروع بومدين الصناعي والزراعي ثم التخلي عنه بعد موته (١٩٧٨) في وقت عرفت فيه عملية التعريب تقدما ملحوظا في المؤسسات التعليمية والأجهزة الإدارية في عهد الشاذلي بن جديد (١٩٧٨ - ١٩٩١) أخل بهذا التوازن وحول الكفة لصالح المعربين مما تسبب في نقمة المتفرنسين بعد أن لم تعد اللغة الفرنسية بالنسبة لأغلبيتهم أداة ترقية ووسيلة تمايز اجتماعي فحسب بل تحولت إلى قيم حضارية وميول ثقافية ومفاهيم أيديولوجية، فاستعملوا كل الوسائل لوقف عملية التعريب ووجدوا خير سند في ذلك دعاة البربرية وغالبية العناصر الشيوعية.

فلم تعد أدبيات الحركة الوطنية تقنع دعاة البربرية ولا مبادئ الثورة تخيفهم، فخرجوا من تحفظهم وبدأوا يجاهرون بأفكارهم ومواقفهم بدعوى حرية التعبير والحق في التمايز، في الوقت الذي أصبحت فيه النخبة المتفرنسة المتحكمة في أجهزة الدولة الجزائرية (النومونكلاتورا) تنفر من شعارات حزب جبهة التحرير المنادية بالتعريب، فلم تعرها الاعتبار وإنما استعملتها فقط كواجهة للتستر على عملية الفرنسة التي تمارسها في المجتمع. وبذلك تهيأت الظروف لدعاة البربرية أن يجددوا نشاطهم وأن ينقلوا أفكارهم للجيل الثالث عن طريق تنظيم الحلقات والدروس التي دأب الأديب مولود معمري على إقامتها والتي اتخذت شكل نشاط ثقافي يرمي إلى إحياء التراث البربري والاعتزاز به، والذي ما لبث أن أصبح له تأثير في الأوساط الطلابية بمدينتي الجزائر وتيزي أوزو.

ومع العراقيل التي وضعت أمام عملية التعريب من طرف الإدارة الجزائرية في الثمانينيات بدأ نشاط دعاة البربرية يتبلور في شكل مطالب محددة تتعلق بالهوية الجزائرية وبأبعاد شخصية الشعب الجزائري، فوجدوا خير مشجع لهم ذلك الموقف السلبي من العربية الذي عرفت به العديد من الإطارات المتفرنسة المتحكمة في أجهزة الدولة وقطاعاتها الاقتصادية والثقافية، هذه الإطارات التي رأت في دعاة البربرية الحليف الطبيعي لها في دفاعها عن مصالحها والمحافظة على مكاسبها أمام تصاعد الأجيال المعربة المتخرجة من المدرسة الجزائرية، في الوقت الذي أصبحت فيه المسألة البربرية محل اهتمام الأوساط المتنفذة في الدوائر الفرنسية وهذا ما سمح بتأسيس «الأكاديمية البربرية» من طرف بعض دعاة البربرية بباريس (١٩٦٧) والتي كان لها دور بارز في بلورة المطالب البربرية في نشريتها الشهرية وفي ما تصدره من مناشير وبيانات، فقد جاء في بيانها الأول: «ان تاريخ شمال أفريقيا كما يدرس الآن كله تزييف وتحريف، فعلى البربر أن يتحدوا ضد جريمة نكراء اسمها العروبة... وهذه بالنسبة لنا هي مسألة شرف وكرامة»[٩١]. كما

ورد في المنشور الثاني: «لقد زيفوا (أي العرب) تاريخكم دون أن تبدوا أي مقاومة، فأوشكتم أن تضيعوا روحكم... إنهم (أي العرب) يحاولون أن يطفئوا نوركم ويحقنوكم بعقار يتلفكم لأنه يحولكم إلى أناس لا ذاكرة لهم ولا انتماء ولا ارتباط... استيقظوا إنهم يحاولون أن يفصلوا عنكم أبناءكم وإذا لم تتداركوا هذا الأمر (أي التعريب) فإنهم يتنكرون لكم (أي أبناءكم) بعد وقت ليس ببعيد، بل يصيرون أعداءكم... قاوموا، عارضوا عملية التعريب الجارية قبل فوات الأوان، ذلك أن اليوم الذي يمر يقربنا من الاضمحلال»[٩٢].

بدأ نشاط دعاة البربرية يتردد صداه في الشارع الجزائري عندما هتفت جموع من شباب القبائل ضد رموز السلطة في ملعب ٥ يوليو بالجزائر العاصمة في شهر يونيو ١٩٧٧ بمناسبة فوز الفريق الرياضي للقبائل (إلكترونيك تيزي أوزو) بكأس الجمهورية. وهال الأمر المسؤولين الجزائريين عندما تعالى الصفير عند سماع النشيد الوطني وترددت هتافات ضد رئيس الجمهورية هواري بومدين، صدرت من جماعات متحمسة ترفع لافتات بخط تيفيناغ وتلوح بألوان خاصة ذات لون أصفر وأخضر، وأمام ارتباك أجهزة الدولة وترددها ومحاولة غض النظر عما حدث، أخذ دعاة البربرية زمام المبادرة وصمموا على كسب الشارع القبائلي إلى جانبهم مستخدمين كل الوسائل وفي مقدمتها مظاهر الفولكلور الشعبي، فكانت الأغنية القبائلية بالنسبة إليهم أحسن وسيلة للتوعية والتجنيد، فانتشرت أغاني تاكفاريناس ومعطوب الوناس وفرحات مهني وآيت منقلات وإيدير وغيرهم، وتحول أصحابها إلى رموز للحركة البربرية وأصبحت تصريحاتهم ومواقفهم تصنع الرأي العام وتوجهه في منطقة القبائل رغم ما فيها من روح التحدي والمواجهة. فآيت منقلات لم يتردد في إحدى أغانيه في التحريض على العرب حيث جاء فيها: «عندما أرى عربيا في حديقتي أطلق عليه النار»[٩٣]. والمغني إيدير، الذي نجحت أغنيته الشهيرة «أبابا إينوبا» حيث بيع منها في سنة ١٩٧٨ ما لا يقل عن مائتي ألف أسطوانة [٩٤]. لم يكن هو الآخر يعتبر نفسه عربيا أو مسلما لأن لغته هي القبائلية وهويته هي البربرية، حسب تصريحه[٩٥].

وصاحب هذا النشاط المحموم لدعاة البربرية تكوين خلايا نشطة بالمصالح الإدارية والثانويات والأحياء الجامعية، وتحول المركز الجامعي لتيزي أوزو الذي أنشئ في إطار التوازن الجهوي في السبعينيات إلى مركز رئيسي لنشاط دعاة البربرية المنتشرين بولايات تيزي أوزو وبجاية والبويرة، مما أثار قلق السلطات المحلية، فحاولت التضييق عليهم عندما رفضت السماح للمطرب القبائلي آيت منقلات بإحياء حفل في الحي الجامعي لتيزي أوزو (١٩٨٠)، وسعت إلى تأجيل عرض مسرحية بالقبائلية لكاتب ياسين بعنوان «حرب ألفي سنة» والتي يرمز فيها إلى أن الجزائر ما زالت في نظره مستعمرة من طرف الدخلاء العرب، وهذا ما تسبب في توتر الأوضاع وهيأ الظروف للاحتجاجات والمظاهرات، فكان منع الكاتب مولود

معمري من إلقاء محاضرة بالمركز الجامعي بتيزي أوزو بعنوان «أشعار قبائلية قديمة» (Poèmes kabyles anciens)[٩٦] في آخر لحظة يوم ١٠ مارس ١٩٨٠ بمثابة القطرة التي أفاضت الكأس، رغم أن السلطات المحلية (الولائية) التي صدر عنها قرار المنع تذرعت بتخوفها مما قد تثيره المحاضرة من حماس وهياج قد يخل بالنظام ويصعب السيطرة عليه، في الوقت الذي اعتبر فيه دعاة البربرية تصرفها نوعا من القمع الثقافي غير المبرر وإهانة في حق التراث البربري لا يمكن السكوت عنها[٩٧].

وبالفعل فقد نظم أساتذة وطلبة المركز الجامعي لتيزي أوزو مسيرة احتجاج في شوارع المدينة لم تلبث أن اتسع نطاقها في اليوم التالي (١١ مارس) بعد أن انضمت إليها جموع من طلبة المدارس وموظفي المصالح الإدارية والتجار بالمدينة قدم جلهم من خارج مدينة تيزي أوزو، فتحولت إلى مظاهرة ضخمة رفعت فيها شعارات مناهضة للتعريب ومنددة بالاستبداد الثقافي - كتبت بالفرنسية والقبائلية وبرموز التيفيناغ - من قبيل: «نعم للثقافات الشعبية الجزائرية»، «تعبنا من الظلم» (نعياسي الباطل)، «الأمازيجية هي لغتنا» (تمازيغت تمسلايت أنغ). بعدها اتخذت الاحتجاجات مظهر عصيان مدني بمساندة عمال المستشفى وعمال شركة النسيج بذراع بن خدة وانضمام جماعات التجار والحرفيين والبطالين، فأعلن الإضراب لمدة يومين (١٢ - ١٣ مارس ١٩٨٠). وبدأ موقف دعاة البربرية يتجذر، بعد أن نجحوا في تجنيد الرأي العام ببلاد القبائل إلى جانبهم، وحددوا موقفهم من خلال العديد من الكتابات الحائطية بشوارع تيزي أوزو، نذكر منها: «أوقفوا القمع الثقافي» (Halte à la répression culturelle)، «ننكسر ولا ننحني أبدا» (Nous nous brisons mais nous ne plierons pas)، «لقد سئمنا من ظلمكم»، «ثقافة بربرية تعني ثقافة شعبية» (Culture berbère=Culture populaire)[٩٨]؛ وفي أثناء ذلك تكررت المهرجانات واستمرت الاضطرابات وتوسعت حركة الإضراب لتشمل تلاميذ المدارس الابتدائية وطلاب الثانويات، مما اضطر السلطات الجزائرية إلى إرسال وحدات من الجيش لتعزيز الشرطة ورجال الدرك، فطوقت مدينة تيزي أوزو، وجرى التدخل لتفريق المعتصمين بالمركز الجامعي وبالمستشفى في ٢٠ أبريل واعتقل المحرضون على الاضطرابات وأودعوا السجن[٩٩]، مما أدى إلى استمرار الاحتجاجات والمظاهرات لمدة أربعة أيام شملت مدن وقرى بلاد القبائل ووصل تأثيرها إلى مدينة الجزائر بفعل نشطاء الحركة البربرية من طلبة الجامعة. ومع نهاية شهر مايو بدأت الأوضاع تستقر ولم تلبث أن خمدت حركة الاحتجاج تاركة وراءها توترا اجتماعيا وثقافيا يخيم على الشارع القبائلي، الذي لم يعد كما كان سابقا، بفعل الطابع الشعبي الذي اكتسبته الحركة البربرية والتراجع الملاحظ للمعارضين لها من سكان القبائل، بعد أن خاب أملهم في النظام السياسي الذي ترك المبادرة لخصومه ولم يكن في مستوى مواجهة الأحداث، وبذلك توطنت أفكار دعاة البربرية ببلاد القبائل وعبرت عن نفسها

من خلال تنظيم ذي طابع ثقافي وتوجه سياسي وقناعات أيديولوجية عرف بـ «الحركة الثقافية البربرية» (.M.C.B).

أصبح من الضروري على دعاة البربرية بعد النجاح الذي حققوه والذي جعل منهم الممثلين الفعليين والمؤثرين في بلاد القبائل أن يحددوا خطتهم ويضبطوا برنامج عملهم الثقافي والاجتماعي والسياسي من خلال تنظيم «الحركة الثقافية البربرية» التي لم تهيكل بعد، فقرروا عقد ملتقى بايكوران في نواحي عزازقة في شهر أغسطس ١٩٨٠ لتحديد خطتهم وتنسيق عملهم، وقد أسفر هذا الملتقى - الذي كانت شخصية الشرف فيه كاتب ياسين، وشاركت فيه نخبة من أنصار الفرنسية والملتزمين بالمبادئ الشيوعية - على إقرار وثيقة المطالب البربرية[١٠٠] التي تمحورت على وجوب اعتبار اللغة الأمازيجية (القبائلية) لغة رسمية للجزائر بنص القانون أسوة بالعربية، وضرورة إدخالها في النظام التربوي الجزائري منذ المرحلة الابتدائية، وبذلك ألغيت أدبيات الحركة الوطنية الجزائرية وتوجهات الثورة الجزائرية عمليا وكرست فكرة ثنائية الهوية الوطنية الجزائرية (قبائل وعرب) كما نظر إليها الفرنسيون في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

حرص دعاة البربرية منذ أحداث تيزي أوزو على خلق جو دعائي للثقافة العربية بالجزائر وقد أدى بهم ذلك إلى ممارسات منافية للسلوك المدني وروح المواطنة عندما تحولت في بعض الأحيان إلى تهجمات صريحة على من ليس قبائليا، في أثناء مظاهرات خريف ١٩٨١ التي عرفت بخريف الغضب والتي اصطبغت فيها مطالب الحركة البربرية غير القابلة للتطبيق بشعارات عنصرية ضد العرب والإسلام من قبيل: «استيقظوا أيها الإخوة البرابر» (Réveillez-vous frères berbères)، «فليطرد العرب» (Les Arabes à la porte)، «البربرية لغتنا» (Le berbère est notre langue)، «اللغة العربية إنها عبوديتي» (L'arabe est mon esclavage)[١٠١]؛ وقد ارتبط هذا التوجه المتهجم على القيم العربية الإسلامية بموقف معادٍ للنظام الجزائري لتمسكه ولو ظاهريا بسياسة التعريب، وهذا ما أوضحه المنشور الذي وزعه دعاة البربرية بتيزي أوزو سنة ١٩٨٧ والذي جاء فيه: «نظام تافه مؤيدوه لا ينفكون في خطاباتهم الديماجوجية تأكيد عروبة الجزائر... التي لا تستند إلى أسس تاريخية صحيحة من الناحية الأنثروبولوجية أو اللغوية... نعم للاشتراكية العلمية، نعم للوحدة الوطنية، لا للسيطرة العربية الإسلامية... نعم لحرية التعبير»[١٠٢].

ثالثا: حركة العروش (٢٠٠١-٢٠٠٣)

لم تحقق أحداث تيزي أوزو لعام ١٩٨٠ المعروفة بـ «الربيع الأمازيجي» ما كان يأمل القائمون بها، فرغم الجهود التي بذلت والتضحيات التي قدمت، فقد ظلت المطالب التي حددتها «أرضية إيكوران» مجرد شعارات لكونها غير قابلة للتطبيق في حد ذاتها، وهذا ما جعل



الحركة البربرية تركز على النشاط السياسي حتى تحول دون تراجع تأثيرها في الشارع القبائلي أمام تصاعد المد الإسلامي الذي امتدت تأثيراته إلى بلاد القبائل بفعل الانفتاح الديموقراطي والتعددية السياسية التي أخذت بها الجزائر سنة ١٩٨٨، ومع دخول الجزائر في أزمة متعددة الجوانب منذ توقيف المسار الانتخابي (١٩٩١)، اضطرت الحركة البربرية إلى مجاراة السلطة الجزائرية التي عرفت كيف تتعامل مع دعاة البربرية عندما بادرت بتجميد الملف الثقافي الجزائري قبل يوم واحد من اغتيال الرئيس محمد بوضياف (٢٩ يونيو ١٩٩٢)، فتحول مناضلو القضية البربرية إلى حلفاء طبيعيين للنظام الجزائري تحت غطاء الدفاع عن القيم الديموقراطية والتعددية السياسية والنظام الجمهوري، وبذلك شتتت جهود دعاة البربرية بين النشاط الثقافي والعمل السياسي والنضال الحزبي وتحولت مطالبهم على ضوء الواقع الصعب الذي كانت تعيشه الجزائر في التسعينيات إلى مجرد شعارات سياسية وبرامج حزبية، وتوزع المناضلون على الكثير من الأحزاب السياسية، وهذا ما تسبب في انقسام الحركة الثقافية البربرية نفسها إلى تنسيقيات بعضها مستقل وبعضها الآخر مرتبط بحزب التجمع من أجل الثقافة والديموقراطية أو بحزب جبهة القوى الاشتراكية. وفي هذه الظروف المتأزمة لم تعد مطالب دعاة البربرية قادرة على تجنيد المزيد من المؤيدين بعد أن أصبح التراث والثقافة البربرية قضية مسلما بها من طرف جميع الجزائريين وأمرا تدرجه مختلف الأحزاب السياسية في برامجها بدءا بالأحزاب اللائيكية وانتهاء بالأحزاب الإسلامية[٢٠]. وهذا ما جعل النظام الجزائري - حرصا على الوحدة الوطنية الجزائرية - يحاول تبني بعض مطالب دعاة البربرية بإدراج تعليم اللهجات البربرية باسم «الأمازيجية» في التعليم ولو جزئيا والتوسع في البث الإذاعي والتلفزي باللسان البربري،كما أحدث مصلحة للاعتناء بالشؤون الثقافية البربرية وتنظيم تعليم البربرية باسم «المحافظة السامية للأمازيجية» استجابة لوقف إضراب المحفظة الذي شمل مناطق القبائل (سبتمبر١٩٩٤ - أبريل ١٩٩٥).

كل ذلك لم يغير من الواقع شيئا لأن المطالب البربرية لم تعد مسألة ثقافية وإنما تحولت إلى قضية سياسية ذات صبغة أيديولوجية تتلخص أهدافها في معاداة الثقافة العربية والعمل على وقف عملية التعريب والإبقاء على هيمنة اللغة الفرنسية انتظارا لآجال غير محددة يمكن فيها تطوير القبائلية من لهجة إلى لغة تعليم وإدارة؛ لكن الشيء الذي لم يأخذه دعاة البربرية في الاعتبار هو أن الزمن لا يتوقف ولا يعود إلى الوراء وأن المؤسسات التعليمية الجزائرية ظلت رغم الحصار الذي تعرضت له والاتهام الذي وجه إليها تواصل رسالتها التعليمية في خدمة اللغة العربية، في الوقت الذي ظلت فيه الفرنسية بحكم الواقع لغة مهيمنة على المصالح العليا والإدارات المركزية والخدمات الفنية لا تسمح لدعاة البربرية تعويضها بالقبائلية، وهذا ما أدى بفعل الظروف التي يعيشها المجتمع الجزائري إلى إقرار نوع من التعايش بين العربية

والفرنسية لم يجد دعاة البربرية مكانا لهم فيه، وهذا ما جعلهم يعتقدون أنهم خدعوا عندما تم جرهم إلى العمل السياسي ودفعوا إلى السعي لاحتلال المناصب، فحاولوا فك الارتباط مع النظام الجزائري مستغلين الظروف الصعبة التي عرفتها الدولة والمجتمع الجزائري أواخر التسعينيات بفعل تردي الحالة الأمنية، فشنوا حملة حادة ضد رموز الدولة وأجهزتها ووضعوا خطة لاحتلال الشارع القبائلي من جديد بهدف الوصول إلى السلطة لفرض تصورهم وتنفيذ مطالبهم دون اعتبار للرأي العام والقوى الفاعلة في المجتمع، وهذا ما انعكس سلبا على أوضاع منطقة القبائل التي أصبح يسودها القلق والاضطراب وتستبد بها روح التمرد وتسود بها روح عدائية ضد النظام الجزائري الذي حمله دعاة البربرية تبعات الضائقة الاقتصادية والانسداد والاضطراب السياسي.

و لم يطل الأمر حتى وجدوا في حادثة مقتل أحد طلبة ثانوية بني دوالة بولاية تيزي أوزو المدعو محمد قرماح المعروف بماسينيسا يوم ١٨ أفريل ٢٠٠١ من طرف أحد رجال الدرك الوطني حجة لتحدي أجهزة الدولة الجزائرية واعتبروا ذلك الحادث بمثابة انتهاك لشرف سكان منطقة القبائل واعتداء على كرامتهم وحقهم في الحياة، فسادت الاضطرابات في العديد من قرى بلاد القبائل وتحولت إلى عصيان عام بعد إلقاء القبض على ثلاثة طلبة من ثانوية واد أميزور بولاية بجاية (٢٢ أبريل)، وصاحب ذلك تنظيم المسيرات وتعدد المظاهرات التي عرف دعاة البربرية كيف يؤطرونها ويوجهونها ضد رجال الدرك الوطني المكلفين بحفظ النظام، فاعتبروهم آلة قتل ورمز فساد؛ وأمام إحجام السلطات الجزائرية عن مواجهة التحدي خوفا من التبعات الخارجية والآثار الداخلية، بادروا إلى ارتكاب أعمال عنف ولم يترددوا في إحراق مقار مصالح الدولة ومكاتب البلديات، وبذلك تراجعت مظاهر سلطة الدولة الجزائرية في منطقة القبائل، لتحل محلها لجان شعبية عرفت بـ «جماعات العروش» أو جماعات القرى، جعلت شعارها: «لا تسامح أبدا» (أولاش السماح) ولم تلبث أن انبثقت عنها تنسيقيات الولايات المؤلفة من مندوبي مجالس القرى لولايات تيزي أوزو وبجاية والبويرة في اجتماع ١٠ مايو ٢٠٠١ بيني دوالة؛ وحتى تحافظ هذه الحركة على زخمها، حددت مطالبها الثقافية والسياسية في اجتماع مندوبي التنسيقيات بمدينة القصر، واعتبرت تلك المطالب، المعروفة بأرضية القصر، الحد الأدنى الذي يمكن التفاوض في شأنه مع السلطات الجزائرية[١٠٤].

وضمن سياسة التصعيد قررت لجنة ما بين الولايات لحركة العروش في اجتماعها بتاريخ ١١ يونيو ٢٠٠١ القيام بمسيرة ضخمة بمدينة الجزائر يوم ١٤ يونيو ٢٠٠١ لفرض مطالبها على السلطات الجزائرية ولو باستعمال العنف؛ وبالفعل توافدت على مدينة الجزائر أعداد غفيرة من بلاد القبائل رغم الحواجز التي حالت دون وصول وسائل النقل العامة إلى وسط المدينة، وأمام إصرار المتظاهرين على الوصول في مسيرة جماعية إلى مقر الرئاسة



الجزائرية بأعالي المدينة (المرادية)، تحولت المظاهرة إلى أعمال تخريب ونهب وحرق وإتلاف للممتلكات والسيارات والمتاجر، في الجهات التي مر بها المتظاهرون، مما دفع شباب مدينة الجزائر أمام سلبية رجال الشرطة إلى التدخل والاشتباك مع المتظاهرين وإرغامهم على العودة من حيث أتوا، وقد كان لمظاهر التخريب والحرق والتدمير التي بثها التلفزيون الجزائري تأثير بالغ في الرأي العام الجزائري الذي نقم على سلوك دعاة البربرية ولم يعد يتجاوب مع مطالبهم، فكان ذلك بداية العد التنازلي لحركة العروش التي لم تستطع أن تحافظ على زخمها بعد مسيرة أوزلاقن في ٢٠ أغسطس والتي نظمتها إحياء لمناسبة انعقاد مؤتمر الصومام (٢٠ أغسطس ١٩٥٦) وأبعدت منها السلطات الرسمية الجزائرية ومنظمة المجاهدين التي اعتادت على حضورها.

لقد كانت خطة حركة العروش تهدف أساسا إلى القضاء على نفوذ الدولة الجزائرية في منطقة القبائل وجر السلطات الجزائرية إلى استعمال القوة معهم حتى يمكن لهم تجنيد الرأي العام لصالحهم ودفع دوائر القرار في فرنسا للتدخل لصالحهم؛ ولكن النظام الجزائري الذي أصبحت له الخبرة في التعامل مع المسألة البربرية فوت عليهم الفرصة التي كانوا يأملونها، فلم يحاول استعمال القوة رغم الإهانات والإصابات التي لحقت برجال الشرطة والدرك الذين ظلوا محاصرين مع عائلاتهم في مقراتهم. ولم يكتف النظام الجزائري بإحباط مخطط حركة العروش بل جردهم من شرعيتهم عندما أوهمهم بسلبية أنه لا يحول دون بسط نفوذهم على منطقة القبائل إثر مظاهرات ٢٥ يونيو ٢٠٠١، وبذلك انعدم النظام وعمت الفوضى، وتحولت حركة العروش إلى ظاهرة احتجاج فوضوي وعصيان مدني موجه للقضاء على مظاهر الدولة الجزائرية بمنطقة القبائل التي تعرض اقتصادها إلى أضرار بالغة طيلة سنتي ٢٠٠١ و٢٠٠٢ وتحول معه أغلب المتعاطفين معها من التجار والصناع والفلاحين والطلبة من موقف مساند إلى متحفظ، وهذا ما سمح لأجهزة الدولة الجزائرية بأخذ زمام المبادرة من جديد مستغلة تعنت ممثلي العروش ومغالاتهم في مطالبهم التي لم تعد قضية ثقافية وإنما تحولت إلى مسألة سياسية، فبادرت إلى سحب البساط نهائيا من دعاة البربرية بإدراج ما اصطلح على تسميته بـ «اللغة الأمازيجية» في الدستور كلغة وطنية بعد أن أدرجت «الأمازيجية» سابقا كأحد ثوابت ومقومات الشخصية الجزائرية أسوة بالعربية والإسلام في نص الميثاق الوطني الجزائري لعام ١٩٨٦، دون أن تحدد أي لهجة بربرية تعتمد كلغة أمازيجية ودون أن تقر أي حرف تكتب به، في الوقت الذي تعدد فيه الناطقون باسم حركة العروش وتعرضت تنظيماتها للانقسام وتحولت من كونها وعاء حقيقيا للرأي العام ببلاد القبائل إلى تنظيم يهدف إلى المشاركة في السلطة عن طريق مطالب جهوية، وهذا ما جعل زعماء حركة العروش يرون بأن المسألة بالنسبة إليهم تكمن في كيفية الجمع بين الهوية والسياسة[١٠٥].

بفعل هذه المواقف انتهت حركة العروش إلى آفاق مسدودة وتحولت من حركة ثقافية اجتماعية تقوم على مبدأ المواطنة إلى مجرد حركة احتجاج وتمرد ضد رموز الدولة بمنطقة القبائل، ولعل أهم عوامل فشلها يعود إلى أن مواقفها كانت مرتبطة بموازين القوى في النظام الجزائري والأجنحة المتنفذة في الإدارة الجزائرية، وإلى كونها لم تقدر مدى عمق الروح الوطنية الجزائرية لدى سكان بلاد القبائل، عندما أصرت على إخراج رجال الدرك من منطقة القبائل باعتبارهم قوة احتلال وعمدت إلى تدمير المؤسسات العامة والمصالح الإدارية والبلدية. على أن أكبر خطأ وقعت فيه حركة العروش هو عدم فهمها للعبة السياسية التي ظلت تمارسها الأحزاب التقليدية في المنطقة، وفي مقدمتها حزبا جبهة القوى الاشتراكية والتجمع من أجل الثقافة والديموقراطية، فحاولت المزايدة عليهما، فوقفت من السلطة الجزائرية موقف تحد غير قابل للمراجعة، وهذا ما شجع بعض المغامرين من صفوفها إلى طرح مطالب متطرفة وصلت إلى حد طرح فكرة الانفصال كحل للمشكل القبائلي، هذه الفكرة التي مهد لها أحد دارسي البربرية وهو الأستاذ سليم شاكر عندما ربط تطور الثقافة البربرية بالحكم الذاتي، عندما اعتبر أن: «الحكم الذاتي السياسي له فوائد تعود على منطقة القبائل وعلى سكانها بالفائدة، لأنه تحرر من الاستعمار الذي تمارسه مؤسسات الدولة الجزائرية الموروثة من عهد فرنسا»[106]. وقد بادر المغني فرحات مهني بالمناداة بالحكم الذاتي لبلاد القبائل بعد أن أصبحت الحكومة الجزائرية في نظره نظاما استعماريا شنيعا، فأعلن في ندوة صحفية في ٣ يونيو ٢٠٠١ بتيزي أوزو عن تأسيس «الحركة من أجل الحكم الذاتي لبلاد القبائل»، مبررا مبادرته هذه بأن تطور اللغة الأمازيجية (القبائلية) مرتبط بالحكم الذاتي الذي لا يمكن أن يكون له معنى حسب قوله بدون بعد اقتصادي، مؤكدا قناعته بأن القبائلية هي الأساس الأول للأمازيجية[107]، وهذا ما صدم الكثيرين من ذوي النيات الحسنة، فرأوا فيه عملا من قبيل الانتحار الذاتي الذي يعيد المسألة البربرية إلى المنطلقات التي نشأت منها، وجعل أكثر المتحمسين للقضية البربرية ببلاد القبائل يتخوفون من عواقبها، فتراجع تأثيرها في الشارع الجزائري، وهذا ما ظهر جليا في إحياء الذكرى الثالثة والعشرين للربيع الأمازيجي (٢٠ أبريل ٢٠٠٣) التي لم يكن لها الصدى المأمول بين سكان القبائل، مما أثار قلق ومخاوف دعاة البربرية وجعل الصحافة المناصرة لها ومنها جريدة «الوطن» تحاول تضخيم التجمعات وإلقاء المسؤولية في فشل حركة العروش على أجهزة الدولة التي لم تتفهم، حسب زعمهم، مطالبها بل تمادت في الحط من شأنها ووصف القائمين عليها بالمشاغبين[108]. ولعل الفرصة المتاحة الآن لهذه الحركة، لكي تحافظ على وجودها وتفرض أفكارها على الشارع القبائلي، تكمن في موقف القوة المساندة لها في جهاز الدولة الجزائرية والتي تعمل على استمرار الأزمة البربرية والتي

لا يستبعد أن تشيد بها وتعيد لها الشرعية وتربط الاتصال بها وتحاول التفاوض معها، بحجة الانفتاح والتضامن وتقبل الآخر وإن كان ذلك يتنافى والمصالح الحية والاستراتيجية للشعب الجزائري.

و- واقع وآفاق المسألة البربرية

إن المسألة البربرية بعد أن فرضت نفسها من خلال الأحداث التي سبقت الإشارة إليها أصبحت في مفترق طرق، إما أن تراجع نفسها وتعدل توجهاتها لتندمج في التطور التاريخي للجزائر الذي يسير نحو المزيد من الانسجام اللغوي والتفاعل الثقافي والتقارب الاجتماعي والحوار السياسي، فتعدّ المطالب البربرية إحدى مكونات الشخصية الجزائرية تعبر عن قيم وطنية لا تتعارض مع الهوية العربية الإسلامية للجزائر، مما يسمح بتوسيع الآفاق السياسية وتعميق الضمير الوطني الجزائري، وإما أن تزيد من غلوائها وتتطرف في مطالبها لتدفع منطقة القبائل نحو الحكم الذاتي وتهيئ الظروف لفصل المجموعة القبائلية عن باقي الشعب الجزائري كما يأمل بعض المتطرفين من دعاتها الذين يعانون الانغلاق الفكري والتعصب الأيديولوجي والقلق النفسي والاضطراب الاجتماعي، وفي انتظار ما قد تؤول إليه الأوضاع، فإن واقع المسألة البربرية اليوم في الجزائر جعل الرأي العام الجزائري يختلف حولها بين مؤيد متحمس وبين موقف معتدل أو محايد يترقب الأحداث وبين معارض مندد؛ فالداعون لها والمؤيدون لمطالبها والملتزمون بأهدافها ظلوا رغم نشاطهم الملحوظ نخبة محدودة العدد متعصبة لمطالبها ومتمسكة بأفكارها، بفعل التلقين والتعبئة والتجييش، فأصبحت ترى في قضيتها مسألة عقيدة وقضية وجود ولا تسمح بالرأي المخالف ولا ترى الحقيقة من الجانب الآخر ولا تقبل النقاش، بل لا تتردد في أن تفرغ ما تراكم لديها من أفكار في عملية عنف وموقف يتصف بالحقد والتشنج، مما يبعد القضية البربرية عن كونها فكرة مصدرها العقل ويجعل منها موقفا معبرا عن عاطفة تتحكم في الإحساس والسلوك(١٠٩). وهذا ما عبر عنه أحد دعاتها بقوله: «إن الجزائر بربرية شئنا أم أبينا... وإن اللغة البربرية (القبائلية) لها ماضيها وكذلك المستقبل، وما مقاومتها للاتينية ثم التعريب فيما بعد وأخيرا الفرنسية إلا أدلة واضحة على تمتعها بديناميكية خارقة جعلت منها قضية بالفعل»(١١٠). وبالفعل فإن هذا التوجه قد حاول تجاوز الواقع عندما علا هتافه على النشيد الوطني ورفع علما مميزا في بعض التظاهرات وقام بمحو الكتابة بالحروف العربية من على لوحات الطرق وإعلانات المحلات والمصالح الإدارية بمنطقة القبائل، واعتبر أن كل ما هو عربي إسلامي عدو ودخيل، كما يعبر عنه العديد من الهتافات والإعلانات التي رفعت منذ سنة ١٩٨٠(١١١).

وتضاف إلى هذه الجماعة المتعصبة شريحة واسعة من المتفهمين للفكرة البربرية والتي يتميز موقفها بالاعتدال بفعل الحس الوطني والرؤية السياسية البعيدة، فهي تقر بمطالب دعاة

البربرية من حيث كونها قضية ثقافية وليست لكونها توجها انفصاليا معاديا لوحدة الشعب الجزائري، فالدعوة البربرية بالنسبة لهم رغم ما عرفته من انحراف وعاشته من تطرف تظل رافدا من روافد الثقافة الوطنية الجزائرية لا يمكن أن تستعمل في أي حال من الأحوال لضرب العرب والإسلام والعروبة والوحدة الوطنية، مما يتطلب احترامها باعتبارها ليست شعارات نخبة وإنما هي مطلب شعبي ومسألة مرتبطة بحرية التعبير واحترام الآخر[112]. وهذا ما عبرت عنه إحدى الشخصيات التاريخية الجزائرية وهو حسين آيت أحمد بقوله: «إننا لا نقول بوجود قومية بربرية أو قبائلية بالجزائر بالنسبة إلينا، ونقولها بقوة أن الجزائر واحدة لا تتجزأ، وهذا ما يفرض على الجميع تقبل التراث الشفوي البربري والاعتزاز به لكونه إحدى مكونات الهوية الجزائرية»[113].

وبعيدا عن هذا الموقف ظل السواد الأعظم من الجزائريين لا يهتم بالمسألة البربرية وإن فرضت أحداثها عليه، فغالبا ما يتصف موقفه بالحياد، لكن مع تصاعد المطالب البربرية وتحديها للرأي العام الجزائري الذي يرى في القيم الحضارية التي يحملها الإسلام دافعا قويا لتيقظ الضمير الوطني الجزائري[114]، شكلت مجموعة وطنية محدودة العدد اتخذت موقفا معاديا لطروحات دعاة البربرية، تحولت إلى شريحة اجتماعية ما فتئ نشاطها يتوسع وتأثيرها في المجتمع الجزائري يتعاظم، بفعل مبالغة دعاة البربرية في مطالبهم ومعاداتهم لكل ما يمت إلى العروبة والإسلام. وأصبحت غالبية هذه الشريحة ترى في الدعوة البربرية مجرد عمل مثقفين منعزلين، وتعتبر الأفكار التي تطرحها من بقايا الاستعمار الفرنسي، فهي حسب تعبير أحد وطنيي القبائل وهو آكلي بلعباس: «فكرة مفتعلة للقبائل الفرانكوفونيين الموالين لفرنسا، انخدع بها العديد من أفراد جيل الاستقلال من غير الأذناب والعملاء والخونة وبفعل عامل الحمية العرقية والغيرة القبائلية»[115]. وهذا ما حاولت التعبير عنه أيضا العديد من اللوائح والمناشير والبيانات والمقالات نذكر منها على سبيل المثال بيان لجنة مساندة المفهوم السليم للمسألة الأمازيجية الصادر بالجزائر عن مجموعة تنتمي إلى مختلف شرائح الشعب الجزائري في ٥ سبتمبر ١٩٩٦ ردا على برنامج المحافظة السامية للأمازيجية باعتبار ما جاء في هذا البرنامج ابتزازا وضربا للشخصية الجزائرية لأنه حسب ما جاء في هذا البيان: «يمس ثوابت الشعب الجزائري ووحدته ويمهد لحرب أهلية لفائدة المستعمر»[116]، وكذلك إعلان لجنة الدفاع عن الوحدة الوطنية وثوابت الأصالة بياتنة المؤرخ في ٢١ نوفمبر ١٩٩٤ والذي جاء فيه: «و إننا نؤكد للجميع أن اختيار لغة رسمية ثانية للجزائر يخضع لسيادة الشعب وحده عن طريق الاستفتاء ولا يمكن فرض لغة رسمية ثانية بجانب اللغة العربية»[117].

انطلاقا من هذه المواقف من دعاة البربرية وبالرجوع إلى الخلفية التاريخية للمسألة البربرية وانعكاساتها على الواقع الجزائري، يمكن استخلاص بعض المميزات والخصائص واستنتاج بعض الأحكام والتقييمات حول «القضية البربرية» في الجزائر:

١- إن المسألة البربرية من حيث الأفكار التي تحملها وتحاول فرضها ما هي إلا جزء من المشروع الاستعماري الذي خضعت له الجزائر طيلة ١٣٢ سنة (١٨٣٠ - ١٩٦٢) والقائم على فكرة تحطيم الثوابت الحضارية للشعب الجزائري المتمثلة في الإسلام والعروبة، وهذا ما جعل دعاتها يتسترون على أصولها، لأن كل دعوة معادية للعربية والإسلام في الجزائر لا تصدر إلا عن تصور استعماري خطط له الضباط الفرنسيون، وعمل على تجسيده رجال الإدارة الاستعمارية لضرب وحدة الشعب الجزائري وتقسيمه، بدليل أن ماضي الجزائر منذ أقدم العصور وحتى بداية الاحتلال الفرنسي (١٨٣٠) يكاد يخلو من أي مظهر من مظاهر العنصرية، وأن حوليات التاريخ الجزائري لم تسجل منذ الفتح الإسلامي أي حركة معادية للعرب أو متحسسة من الإسلام. وحتى بعد الاحتلال الفرنسي ظلت السياسة البربرية لفرنسا حتى الحرب العالمية الأولى لا تتجاوز المصالح الأهلية للإدارة الفرنسية، ولعل هذا ما دفع المؤرخ الفرنسي شارل روبير آجرون (Ch.R. Ageron) إلى اعتبار سياسة فرنسا «البربرية» في بلاد القبائل مجرد وهم أو خرافة كما سبقت الإشارة إليه[١٨]، وجعل أحد رجال الحركة الوطنية المناضل بن يوسف بن خدة يعتبرها: «مجرد حصيلة للأيديولوجية الاستعمارية والأفكار الشيوعية»[١٩].

ومن هذا المنظور يمكن اعتبار الحركة البربرية بالجزائر وليس كل البربر تعبيرا عن حالة من الاغتراب لشريحة ما فتئت يتزايد عددها ويتعاظم نفوذها، تتشكل أساسا من النخبة الجزائرية المتغربة والممثلة للثقافة الفرنسية والمتشبعة بقيم الحضارية الغربية وليس كما يدعي ميشال جوبير (M. Jobert) صدى حقيقيا للضمير البربري[٢٠]، وقد أصبح الاغتراب يشكل نوعا من الثقافة في غياب مشروع مجتمع كفيل بتجنيد كل الطاقات وقادر على تجاوز التأزم والانسداد الثقافي والاجتماعي، وبفعل ظهور جيل جديد من الجزائريين ولد بعد الاستقلال ولم يعد مرتبطا بأدبيات الحركة الوطنية أو ملتزم بقيم الثورة التحريرية، كما لم يعد مقتنعا بأي مشروع بعد فشل تجربة هواري بومدين (١٩٦٥ - ١٩٧٨) في المجال الاقتصادي والثقافي.

٢- إن المسألة البربرية ظلت محصورة في منطقة القبائل ولم تتبن أفكارها المناطق التي تتكلم لهجات بربرية أخرى مثل الأوراس وميزاب والهوقار، هذا إذا استثنينا أفرادا قليلين لا يعبرون عن ميول السكان ومواقفهم، وهذا ما جعل الحركة البربرية حسب تعبير الجنرال آندري (Général André) (١ مايو ١٩٥٦): «قضية قبائلية لا أكثر ولا أقل»[٢١]. وقد حاول حسين آيت أحمد إيجاد مبرر لهذه الدعوة التي ظهرت بالقبائل وإعطاءها تفسيرا يحافظ على الانسجام الوطني عندما صرح بأن: «الأمة الجزائرية لها عدة مستويات في السرعة من حيث التطور وحسب المناطق، وأن مظاهر استيقاظ بلاد القبائل المبكر من حيث عمقه وسرعة انتشاره فرض على القبائل واجبات تتعلق بالشخصية الوطنية ومنها المكون أو الثابت

البربري»[١٢٢]، متناسيا تأثير الاستعمار وعمق عملية الفرنسة والتغريب التي خضعت لها بلاد القبائل بخلاف المناطق الأخرى الناطقة بالبربرية كالأوراس وميزاب والهوقار التي امتزج فيها الضمير البربري بالشعور الإسلامي وبالمحبة الخالصة للغة العربية، مما يجعل كل دعوة في هذه المناطق ضد لغة القرآن وشريعة الإسلام تعتبر بمنزلة استفزاز وتحد لا يمكن قبوله أو التسليم به.

وقد انعكس انحصار تأثير الحركة البربرية ببلاد القبائل سلبا على توجهات الحركة البربرية نفسها وأفقدها البعد الوطني الذي ظلت تسعى إليه وتعمل من أجله باعتبار أن شمال أفريقيا بربري، وهذا ما دفع بعض دعاة البربرية إلى محاولة تضخيم نسبة السكان المتكلمين باللهجات البربرية، خاصة القبائل منهم، فقدروا نسبتهم إلى مجموع سكان الجزائر بما لا يقل عن ٤٠٪ [١٢٣]، فيما الإحصاءات الرسمية تحدد هذه النسبة بـ ١٧,٩٪ [١٢٤].

وفي إطار تجاوز الصفة الإقليمية والخروج من «الغيتو القبائلي» نادى دعاة البربرية بلغة أمازيجية هي في الواقع لهجات بربرية عدة، وحاولوا نقل نشاطهم خارج بلاد القبائل، فامتنعت عنهم ميزاب بعد أن نظمت الجمعيات الثقافية البربرية ملتقى بغرداية للغة البربرية (٢١ - ٢٢ أبريل ١٩٩١)، ولم تنتقل أفكارهم إلى الأوراس، وكانوا يأملون كسب هذه المنطقة إلى جانبهم لإعطاء حركتهم صفة الشرعية والطابع الوطني[١٢٥]، لكنهم اصطدموا بالتيار الوطني ممثلا في بقايا مجاهدي الأوراس، وعلى رأسهم المرحوم الحاج الأخضر، الذين رأوا في هذا التوجه خطرا يهدد وحدة الجزائر ويدمر مستقبلها، ولم يكتب النجاح لملتقى اللغة البربرية بباتنة، الذي حاولت الفيدرالية الوطنية للجمعيات الثقافية البربرية تنظيمه (١٩٩٢)، رغم تعاطف بعض المسؤولين بالأوراس معها، كما لم يكتب للملتقى الذي دعت إليه المحافظة السامية للأمازيجية بباتنة في شهر أغسطس ١٩٩٦ النجاح، بعد أن تدد به سكان الأوراس ووجهوا في شأنه رسالة إلى رئيس الجمهورية الجزائرية بتاريخ ١٢ مايو ١٩٩٦، جاء فيها: «كيف تفسرون هذا الميلاد الخيالي المشوه للأمازيجية في منطقة محدودة في وطننا الفسيح والغني باللهجات والتقاليد. ونحن ندد بهذه الممارسات ونتساءل لماذا يحاول هؤلاء الانعزاليون ضرب اللغة العربية بإيجاد بديل لها بعد أن كانت هذه اللهجة نسيا منسيا لآلاف السنين في مجاهل التاريخ. إن الذي يؤسف له أن يراد من الأوراس في هذا الوقت أن يكون منطلق هذه الفتنة التفريقية واللعنة التاريخية وكأنهم يريدون بهذه القنبلة الموقوتة تفجير تاريخ نوفمبر ١٩٥٤»[١٢٦].

٣- إن الحركة البربرية تعبير عن النتائج الخطيرة التي تسبب فيها إهمال الحركة الوطنية الجزائرية للجانب الثقافي والمفاهيمي في مشروعها الوطني، فقد أعطت الحركة الوطنية الجزائرية ممثلة في التيار الاستقلالي بزعامة مصالي الحاج (١٩١٩ - ١٩٥٤) الأولوية في نضالها للجانب السياسي الحركي على

البعد التربوي والروحي بفعل أسباب موضوعية وظروف قاهرة، وهذا ما سمح للثقافة الفرنسية أن تصبح وسيلة عمل ونضال من أجل تحرير الجزائر، فكان ذلك شيئا مقبولا بالنسبة للجيل الأول الذي يمثله مصالي الحاج والذي كانت قناعاته عربية إسلامية خالصة، لكن مع وصول الجيل الثاني الذي تمثله اللجنة المركزية لحزب الشعب إلى مراكز الصدارة في الخمسينيات تحولت الثقافة الفرنسية إلى ثقافة سائدة تؤثر في القناعات والتوجهات قبل الثورة التحريرية وفي أثنائها (١٩٥٤ - ١٩٦٢)، وحتى بعد استرجاع السيادة الوطنية وتحقيق الاستقلال (١٩٦٢) اضطرت الدولة الجزائرية الفتية تحت الحاجة الماسة لبناء الهياكل الإدارية وتنظيم المصالح الاجتماعية والاقتصادية إلى الاعتماد على الإطارات المتفرنسة، وإن رفعت شعار التعريب وذهبت فيه بعيدا إلى حد اعتبار سنة ١٩٧١ موعدا لتجسيده، وهذا ما أثار مخاوف النخبة المتفرنسة وجماعات الشيوعيين ودعاة البربرية وولد تيارا معاديا للعربية في الأوساط المتنفذة في الإدارة الجزائرية، فلم يجد ذوو الثقافة العربية بدا معه من التموقع في الوظائف الدينية والتعليمية والمهام الثقافية والنشاطات الحزبية والوقوف موقفا متحفظا من التوجهات اليسارية للنظام الجزائري، مما جعل خصومهم يتهمونهم بالرجعية مع أن موقفهم المحافظ كان في الواقع تعبيرا «عن عدم قبولهم لفكرة إبعادهم عن المسيرة التحديثية التي نادت بها مشاريع هواري بومدين أكثر من كونه صادرا عن موقف معبر عن فعل رجعي»[١٣٧]. ومع تراجع المشروع البومديني أواخر السبعينيات شعرت النخبة المتفرنسة ممثلة في النومونكلاتورا المتحكمة في الإدارة وأجهزة الدولة بتراجع نفوذها ومكانتها خاصة بعد فشلها في وقف عملية التعريب بعد تنحية مصطفى الأشرف من وزارة التربية والتعليم وتعويضه بمحمد الشريف خروبي (١٩٧٧) وشروع هذا الأخير في تطبيق أمرية ١٩٧٦ التي أقرها حزب جبهة التحرير الوطني والمتعلقة باعتماد المدرسة الأساسية القائمة على فكرة توحيد التعليم وتعريبه وجزأرته، وبذلك أصبحت المواجهة مفتوحة بين النخبة المتفرنسة ودعاة البربرية وبين أنصار العربية والملتزمين بالثوابت الوطنية الذين وجدوا في التيار الإسلامي المتنامي خير سند لهم في معركتهم المصيرية المتمثلة في استرجاع العربية لمكانتها الطبيعية باعتبارها اللغة الوطنية والرسمية للدولة الجزائرية.

٤- إن الحركة البربرية كانت رد فعل على عملية التعريب التي حاولت الجزائر الأخذ بها لتحقيق الاستقلال الثقافي واكتساب المناعة الحضارية، وهذا ما جعل الحركة البربرية ترتبط مطالبها ويتطور نشاطها مع التقدم الذي أحرزته الجزائر في هذا المجال، فكانت المطالب البربرية في السبعينيات رد فعل على تقدم عملية التعريب، كما كان تعريب الدراسة في مجال العلوم الاجتماعية بجامعة الجزائر (١٩٨٠) والشروع في تعريب الحالة المدنية يوم ٢٠ أبريل ١٩٨٠ أساسا لأحداث الربيع الأمازيجي[١٣٨].

إن دخول قانون استعمال اللغة العربية في الإدارة والحياة العامة والمؤسسات حيز التنفيذ ابتداء من تاريخ ٥ يوليو ١٩٩٨ وقرار تعريب الجامعة تعريبا كليا في ٥ يوليو ٢٠٠٠، جعل نشاط الحركة البربرية يتخذ شكلا عنيفا، فكانت حادثة اغتيال المطرب

الشعبي القبائل معطوب الوناس (٢٦ يونيو ١٩٩٨) سببا في إشعال نار الفتنة ووقف تطبيق القانون، وبدا الحديث عن نشوء الحركة المسلحة البربرية التي هددت بقتل كل من يطبق قانون التعريب [١٢٩].

٥- إن الحركة البربرية هي تعبير عن الصراع الأيديولوجي والثقافي الذي تعيشه الجزائر منذ الاستقلال وحتى الآن، فهي ثمرة مرة لسياسة وثقافة الحزب الواحد في الجزائر (١٩٦٢-١٩٨٨) التي حيدت العناصر النزيهة في المجتمع وأفرغت الساحة الجزائرية من عوامل المناعة الذاتية النابعة من الإيمان العميق بالقيم والمبادئ، كما أنها نتيجة غير موفقة لممارسة تعددية حزبية ظلت قاصرة، منذ انطلاقها سنة ١٩٨٨، عن تكوين آراء وقناعات مشتركة بين الجزائريين. وهذا ما سمح للمسألة البربرية بأن تطرح نفسها كقضية ثقافية ومسألة سياسية في آن واحد، وتصبح واقعا اجتماعيا يفرض نفسه على الشارع الجزائري، بعد أن تعامل معها النظام الجزائري بنظرة آنية، غالبا ما تعكس واقع توازنات السلطة، الأمر الذي أحدث قلقا وجدانيا وتناقضا ذاتيا خاصة بين دعاتها بعد أن انفصلوا عن دوائر السلطة ولم يعودوا مرتبطين بمحضن الإدارة الجزائرية، وبذلك لم يعد دعاة البربرية يقنعون بخدمة النخبة المتنفذة في أجهزة الدولة الجزائرية التي طالما رعتهم وتقبلت أفكارهم وغضت الطرف عن نشاطهم ما داموا حلفاء طبيعيين في مواجهة التعريب والحيلولة دون استرجاع اللغة العربية لمكانتها الطبيعية في المجتمع ومؤسسات الدولة الجزائرية.

٦- إن الحركة البربرية تعبير عن تأزم وضع ثقافي واجتماعي قائم على الازدواجية الثقافية والثنائية الاجتماعية بين متفرنسين ومعربين فرضه تقسيم سوق العمل ونوعية النشاط الثقافي والتعليمي، فأدى ذلك إلى انتقاء اجتماعي وتعدد لغوي تموضع في شكل قيم ثقافية وقناعات دينية معبرة عن المصالح الذاتية، وهذا ما جعل الحركة البربرية تبتعد عن طابعها الثقافي وترتبط أكثر فأكثر بالتوجه السياسي وتندمج في التنظيم الحزبي وتصبح جزءا من المجتمع المدني الرافض للقيم الإسلامية والعربية، وهذا ما يؤكده تحول دعاة البربرية الذين كانوا ينشطون في الساحة الثقافية إلى العمل السياسي، وبذلك هيأوا الأرضية لظهور أحزاب سياسية بعد إقرار التعددية السياسية إثر أحداث ٥ أكتوبر ١٩٨٨، وهذا ما أدى لاحقا إلى تقسيم الحركة الثقافية البربرية إلى عدة توجهات، بدأت بظهور تنسيقيتين مرتبطتين بالحزبين الرئيسيين بمنطقة القبائل إحداهما مؤيدة لحزب جبهة القوى الاشتراكية، والأخرى مساندة لحزب التجمع من أجل الثقافة والديموقراطية.

٧- إن الحركة البربرية نشاط ثقافي ظرفي ناتج عن قناعات ثقافية ومواقف أيديولوجية سوف لن تلبث حركة التاريخ الجزائري أن تستوعبه، لأن الواقع الجزائري اليوم - باعتباره حصيلة لتطورات تاريخية - لا يقر بوجود أقلية أو أغلبية لغوية أو عرقية بربرية أو عربية تبرر ضرب وحدة الشعب الجزائري وتقسيمه إلى ثقافتين وإثنيتين، وحتى لو افترضنا بأن هناك

أقلية حسب مفهوم دعاة البربرية فإنها - قبل كل شيء - أقلية شعبية تحاول النخبة المتفرنسة في بلاد القبائل استغلالها وابتزازها متناسية أنها تشترك مع الأغلبية في الأصول، وتسهم معها باستمرار في تكوين الأكثرية العربية لأن هذه الأكثرية إن سلمنا بوجودها فإنها قائمة على أساس الانتماء الحضاري لا العنصري(١٣٠).

وبهذه النظرة فإننا نعتبر التعصب البربري في الجزائر تيارا مضادا لسير التاريخ وتطور المجتمع يحاول وقف عجلة التاريخ، وبهذا المفهوم تظل الحركة البربرية في نظرنا مجرد ظاهرة ثقافية واجتماعية إنتعشت في الفترة الاستعمارية التي عاشتها الجزائر ومازالت آثارها ملموسة ومؤثرة في المجتمع الجزائري، وتعبير عن تأزم اجتماعي وفراغ ثقافي لم تستطع الحركة الوطنية طرحه بالشكل الصحيح ولا الحكومات الجزائرية بعد الاستقلال معالجته بالأسلوب الملائم، والأمر يتطلب اليوم حل هذا المشكل في إطار المسألتين السياسية والثقافية اللتين يتوقف مستقبل الجزائر على إيجاد حلول لهما.

❖ ❖ ❖

وأخيرا... لا يسعنا إلا القول إن عبقرية الشعب الجزائري - الذي عانى مآسي وويلات الاستعمار الفرنسي (١٨٣٠ - ١٩٦٢)، وخاض ملحمة الثورة بنجاح (١٩٥٤ - ١٩٦٢)، وتصدى لعملية البناء الوطني في ظروف صعبة - كفيلة باحتواء الآثار السلبية الناتجة عن «المسألة البربرية» وتجاوز الأزمات والظواهر المرتبطة بها، وذلك في إطار مشروع ثقافي نابع من روح الشعب الجزائري ومعبر عن روح المواطنة ومتميز بالعقلانية والأصالة والحيوية والتفاعل والانفتاح، بحيث يصبح التعدد اللغوي غنى والاختلاف في الرؤى حيوية، وطرح الأفكار المستحدثة حافزا للتفاعل وعاملا مساعدا على تجاوز التمركز حول الذات ودافعا للانفتاح على الآخر. وهذا ما يجعل من «البعد البربري»، في الذاكرة التاريخية وفي التراث الجزائري، عنصر تدعيم وتوحيد وتعزيز للشخصية الجزائرية، حسبما حدد مواصفاتها وصاغ مكوناتها باعث النهضة الجزائرية الإمام عبد الحميد بن باديس في الثلاثينيات من القرن الماضي، التي تتلخص في الاعتزاز بالأصول البربرية والتمسك بالثقافة العربية وتمثل الروح الإسلامية والالتزام بالوطنية الجزائرية والتي عبر عنها نشيده الخالد، الذي نثبت البيتين الأول والأخير منه للدلالة عن هذه الهوية وما تتطلبه من مواقف وتضحيات:

شعب الجزائر مسلم　　وإلى العروبة ينتسب
فإذا هلكت فنصيحتي　　تحيا الجزائر والعرب

هوامش البحث

1. بلاد القبائل: تقع بلاد القبائل إلى الشرق من مدينة الجزائر وتمتد على ساحل البحر من وادي ساباو إلى وادي آغريون، وتحدها من ناحية الجنوب هضاب سطيف وجبال البيبان وسهول غريب ومضايق الأخضرية بحيث تؤلف مساحة تقدر بـ ١٥٠٠٠ كلم٢، تتشكل من سلاسل جبال جرجرة (قمة لالا خديجة: ٢٣٠٨م) وحوض سباو المعروفة بالقبائل الكبرى، وجبال القرقور والبابور الغربية وحوض الصومام المعروفة بالقبائل الصغرى.
تتميز بلاد القبائل المعروفة عند المؤرخين بـ «بلاد زواوة» بمناخها المتوسطي (متوسط التساقط بين ٦٠٠ و١٠٠٠مم) وبغطائها النباتي الغني وكثافة سكانها (متوسط الكثافة ١٤٠ نسمة/ كلم٢) والمقدرين بحوالي ثلاثة ملايين نسمة بمن فيهم المقيمين في فرنسا، ويتميزون بلهجتهم البربرية (القبائلية) وبالمحافظة على عاداتهم وتقاليدهم وميلهم إلى الهجرة إلى مدينة الجزائر وفرنسا. وهم في أغلبهم يتجمعون على قرى تقع على قمم المرتفعات (٢٠٠ قرية في القرن التاسع عشر).
للمزيد من المعلومات راجع: ناصر الدين سعيدوني، مدونة المدن والأقاليم الجزائرية، مادة «بلاد القبائل».
2. ناصر الدين سعيدوني، الجزائر منطلقات وآفاق، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٠، ص. ١٩.
3. اكتسبت البلاد الجزائرية طابعها الإسلامي العربي بعد أن اعتنق سكانها من البربر الإسلام مع الفتح الإسلامي، فحسن إسلامهم وانتشرت اللغة العربية بينهم، فأصبحت لغة غالبيتهم. فحسب الإحصاءات المتوافرة بلغت نسبة المتكلمين بالعربية من الجزائريين ٨١,٥ في المائة أي ٩٧٣٤١٠٠ نسمة، ونسبة الناطقين بالبربرية ١٧,٩ في المائة أي ٢٢٦٧٣٠٠ نسمة يتوزعون على مختلف اللهجات البربرية (القبائلية: ١٠ في المائة، الشاوية: ٦ في المائة، الميزابية: ١ في المائة، وما بقي طارقية وزناتية). راجع إحصاء سنة ١٩٦٧ المنشور بجريدة الشعب الجزائرية، ودراسة محمد بوحمزة حول إحصاء أكتوبر ١٩٥٤ المنشور بجريدة الوطن الناطقة بالفرنسية في ٦ يناير ١٩٩٢.
4. بدأت مقاومة بلاد القبائل للتوسع الفرنسي في الجهات الشرقية لمدينة الجزائر بزعامة الشيخ بلقاسم أوقاسي والشيخ محمد بن زعموم (١٨٣١ - ١٨٤٣)، ثم استمرت بقيادة رجال الزوايا (المرابطون) وفي مقدمتهم المرابط سي أحمد بن الطيب بن سالم خليفة الأمير عبد القادر ببلاد القبائل (١٨٤٠ - ١٨٤٦) الذي تصدى لحملات الدوق دومال والجنرال بيجو (١٨٤٣ - ١٨٤٤). بعده اتخذت المقاومة شكل جهاد ديني بقيادة المجاهد بن عبد الله المعروف ببوبغلة (١٨٥١ - ١٨٥٤) والمجاهدة لالا فاطمة انسومر (١٨٥٤ - ١٨٥٧) اللذين تصديا لجحافل الجيش الفرنسي بقيادة كامبو وراندون وكوني. ورغم القضاء على المقاومة إلا أن القبائل استطاعوا مجددا إعلان الثورة بزعامة الرحمانيين وبقيادة المقراني (١٨٧١) والتي عمت الشرق الجزائري وكادت أن تضع نهاية للاستعمار الفرنسي في الجزائر.
5. «المكاتب العربية»: هي عبارة عن نظام إداري يقوم على القوانين الاستثنائية وعلى الدعاية الفرنسية في الجزائر ومراقبة التجمعات الريفية والسيطرة عليها (١٨٣٣ - ١٨٧٠) بهدف مراقبة السكان وقمع أي حركة معادية للحكم الفرنسي، تولى تطبيقه ضباط فرنسيون وفي مقدمتهم الجنرال أوجين دوما.
أما «البلديات الممتزجة»: فهي بلديات ناقصة الصلاحيات لا تطبق فيها القوانين الفرنسية وإنما يتولى شؤونها الحاكم الفرنسي وأعوانه، وقد أحدثت بالمناطق التي يقل فيها العنصر الأوربي وكانت تشكل نسبة ٥٨ في المائة سنة ١٩٣٠، بينما الجهات التي يتواجد فيها الأوروبيون فقد أحدثت بها بلديات كاملة الصلاحيات يطبق فيها القانون المدني الفرنسي لسنة ١٨٨٤، ومع توسع الاستعمار أصبحت هذه البلديات تشكل سنة ١٩٣٠ حوالي ٤٢ في المائة.
للمزيد من المعلومات راجع: ناصر الدين سعيدوني، المصدر نفسه، ص ص. ٢٦ - ٣٣.

6 Ch. R. Ageron, L'Algérie algérienne de Napoléon III a De Gaulle, Paris, Sindbad, 1980 (La politique berbère sous le Second Empire, pp. 37-71).
- Ch. R. Ageron, La France a-t-elle eu une politique kabyle, in Revue historique, avril 1960, pp. 311-352.

7 J.- M. Venture de Paradis, Grammaire et dictionnaire abrégés de la langue berbère, Paris, imp. Royale, 1844.

8 Abbé G. F. Raynal, Histoire philosophique et politique des établissements et du commerce des Européens dans l'Afrique septentrionale, Paris, Costes, 1826.

9 Pharaon, Les Cabiles et Bougie, Alger, Philippe, 1935.
- A. Dureau de la Malle, Recueil de renseignements pour l'expédition ou l'établissement des Français dans cette partie de l'Afrique septentrionale, Paris, Gide, 1837.
- H. Saladin, Lettre sur la colonisation des possessions françaises dans le nord de l'Afrique, Genève, imp. Deladore et Ramboz, 1837.
- Colonel Ed. Lapène, Vingt-six mois à Bougie, Note historique, morale, politique et militaire sur les Kabaïls, Paris, Toulouse, 1839, pub. en partie sous le titre : Tableau historique, social et politique sur les Kabyles, Metz, De la Morte, 1846.
- Abbé Suchet, Lettres édifiantes et curieuses sur l'Algérie, Tours, Mamé, 1840.
- Père Dugas, La Kabylie et le peuple kabyle, Paris, 1841.
- Baron Baude, L'Algérie, 2 Vols., Paris, 1841.
- E. Bavoux , Voyage politique et descriptif dans le Nord de l'Afrique, Paris, Brokaus et Avenarices, 1841.
- Ch. Brosselard, Dictionnaire français-berbère avec le concours de Sidi Ahmed ben El-Hadj Ali, Paris, imp. Royale, 1844.
- Maréchal Th. R. Bugeaud, Exposé de l'état actuel de la société arabe, ou De diverses races qui peuplent l'Algérie, les Arabes, les Kabyles, in Revue de l'Orient, T. VI, 1845, pp. 345-361.
- Capitaine Fabar et Général Eu. Daumas, La Grande Kabylie, Etudes historiques, Paris, Hachette, 1847.
- Ch. Duplan, Les Kabyles et la Kabylie, in Revue de l'Orient et de l'Algérie, 1847, pp. 264-280.
- Capitaine Carette, Etude sur la Kabylie proprement dite, in Exploration scientifique de l'Algérie, T. I, 1848.
Capitaine Carette, Recherches sur les origines et les migrations des principales - tribus de l'Afrique septentrionale et particulièrement de l'Algérie, 2 Vols., Paris,

1840-1842.
- Général Eugène Daumas, La société berbère, in Revue de l'Orient, de l'Algérie et des Colonies, T. VII, 1858, pp. 305-321.
- Général Eugène Daumas, La Kabylie, in Revue contemporaine, 1856, pp. 1-31.
- Général Eugène Daumas, M_urs et coutumes de l'Algérie (Tell, Kabylie et Sahara), 1ère éd., 1853 (4ème éd., 1864).
- L. de Baudicour, La colonisation de l'Algérie, ses éléments, Paris, Lecoffre, 1856.
- A. Berbrugger, Les époques militaires de la Grande Kabylie, Paris, Bastel et Challamel, 1857.
- A. Berbrugger, Les confins militaires de la Grande Kabylie sous la domination turque (Province d'Alger), Alger, 1857.
- Ch. L. Féraud, Notes sur Bougie, in Revue africaine, 1858-1859.
- C. Devaux, Les Kebaïls du Djurdjura, Paris-Marseille, éd. Challamel, 1859.
- Dr. A. Bernard, Campagne de la Kabylie, Paris, 1861.
- Colonel L. Guin, Notice sur le Cheikh Gassem des Gueschtoula, in Revue africaine, T. 5, 1861, pp. 308-311. Note sur la famille des R'obrini de Cherchel, in Revue africaine, T. 17, 1873, pp. 444-472.
- Baron H. Aucapitaine, Les Kabyles et la colonisation de l'Algérie, Paris, Challamel, 1864.
- Ch. Farine, A travers la Kabylie, Paris, éd. Ducocq, 1866.
- N. Bibesco, Les Kabyles du Djurdjura, in Revue des deux mondes, T. 2, mars 1866, pp. 113-149.
- V. Bernard, Indicateur général de l'Algérie, Alger, Bastide, 1867.
- G. Hanoteau, Poésies populaires de la Kabylie du Djurdjura, Paris, imp. Impériale, 1867.
- Au. Pomel, Races indigènes de l'Algérie, Arabes, Kabyles, Maures et Juifs, Oran, Typo. Dagorn, 1871.
- Général A. Hanoteau et A. Letourneau, La Kabylie et les coutumes kabyles, 2 Vols., Paris, Challamel, 1872-1873
Colonel N. Robin, Note sur l'organisation militaire et administrative des turcs - dans la Grande Kabylie, in Revue africaine, T. 17, 1873, pp. 132-140 et 196-207.
- Colonel N. Robin, Insurrection de la Grande Kabylie, 1871, Paris, 1901 & Notes historiques sur la Grande Kabylie de 1851 à 1858, in Revue africaine, 1902.
- H. Fournel, Les Berbères, Etudes sur la conquête de l'Afrique par les Arabes, 2 Vols., Paris, imp. Nationale, 1875.

- Dr. Gavoy, Notice sur Tizi-Ouzou, Alger, Typo. Victor Aillaud et Cie, 1878.
- M. Manouvrier, Anthropologie de l'Algérie, in Revue scientifique, 3ème série, n° 15, avril 1881, pp. 468-474.
- Colonel Trumelet, Les Saints de l'Islam, Les Saints du Tell, Paris, Ddier et Cie, 1881.
- E. Mercier, Les indigènes de l'Algérie, Paris, Challamel, 1884.
- E. Masqueray, Formation des cités chez les populations sédentaires de l'Algérie (Kabyles du Djurdjura, Chaouia de l'Aurès, Beni Mezab), Paris, E. Leroux, 1886.
- O. Houdas, Ethnographie de l'Algérie, Paris, Maisonneuve frères et Ch. Leclerc, 1886.
- H. E. Perret, Récits algériens, 2 Vols., Paris, Bloud et Barral, 1888.
- P. Gaffard, L'Algérie conquise, 1888.
- A. Viré, Les Kabyles du Djurdjura, in Bulletin de la Société anthropologique de Paris, T. 46, 1893, pp. 58-86.
- E. Charveniat, A travers la Kabylie et les questions kabyles, Paris, 1889.
- L. Rinn, L'insurrection de 1871, Alger, 1890.
- Jules Lionel, Races berbères, Kabyles du Djurdjura, Paris, E. Leroux, 1892.
- G. Boissier, L'Afrique latine, Paris, 1895.
- Georges Elie, La Kabylie du Djurdjura et les Pères blancs, Paris, 1921.
- J. Le Maistre, Mœurs et coutumes kabyles, Montpellier, 1905.
- H. Garrot, L'Islamisme et son action en Berbérie, in Bulletin de la Société de Géographie de l'Afrique du Nord, T. XI, 1906, pp. 154-188
H. Garrot, Histoire générale de l'Algérie, Alger, 1910. -
- E. Laoust, Etude sur les dialectes berbères, Paris, E. Leroux, 1912.
- Ed. Doutté, E. F. Gautier, Enquête sur la disparition de la langue berbère, Alger, Jourdan, 1913.
- G. Marçais, Les Arabes en Berbérie du Xè au XIVè siècles, Paris, 1913.
- E. Mercier, Les indigènes de l'Algérie, leur situation dans le passé et le présent, Paris, Challamel, 1884.
- Colonel L. Péchot, Histoire de l'Afrique du Nord avant 1830, 3 Vols., Alger, 1914.

10 Fanny Colonna, Savants paysans, Eléments d'histoire sociale sur l'Algérie rurale, Alger, O.P.U., 1987, p. 96.

11 E. cherveniat, op.cit., p. 20.

12 أحمد بن نعمان، فرنسا والأطروحة البربرية في الجزائر، الجزائر، منشورات دحلب، ١٩٩١، ص ١٤٠.

13 Piquet, Les civilisations de l'Afrique du Nord, Berbères, Arabes et Turcs, Paris,

A. Colin, 1921, d'après K. Filali, Le mythe kabyle et la politique coloniale de division, Unité de recherchè Afrique et Monde Arabe, Université de Constantine, 1998, Travail dactylographié, p. 9.

14 L. Bertrand, Le sang des races, le cycle africain, Paris, 1930.

15 Au. Bernard, L'Algérie, Paris, L. Félix Alcan, 1929, p. 140.

16 H. Fournel, op.cit.

17 V. Piquet, op.cit.

18 G. Boissier, op.cit., p. 114.

19 Augustin Belkacem Ibazizen, Le pont de Bereq'mouch, ou le bonde de mille ans, la table ronde 1980, d'après Guy Pervillé, Les étudiants algériens de l'université française (1880-1962), Paris, éd. du C.N.R.S., 1984, pp. 214-215.

20 Général Eu. Daumas, La société berbère et la Kabylie, op.cit.

21 Guide de Bougie, la Petite Kabylie, Paris, 1914, p. 20.

22 E. Carette, Recherches sur les origines..., op.cit.

اعتمادا على: مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، قسنطينة، المطبعة الجزائرية الإسلامية، ١٩٣٢، ج. ٢، ص ١٢٢.

23 Lhaoussine Mtouggi, Vue générale de l'histoire berbère, Alger, Maison des Livres, s.d., p. 96.

24 Ch. R. Ageron, L'Algérie algérienne..., op.cit., p. 41.

25 Idem, p. 50.

26 أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، الجزائر، المطبعة العربية، ١٩٣١، ص ٣٤٤.

27 الظهير البربري في المغرب الأقصى (١٩٣٠): هو استمرار للسياسة البربرية لفرنسا في الجزائر، وهو يهدف إلى تمزيق وحدة المغرب الأقصى الحضارية بإبعاد البربر عن الثقافتين العربية والإسلامية وربطهم بفرنسا، بحجة أن تراثهم ولهجاتهم مهددة بالذوبان في العرب. وقد بدأ التمهيد له بسن ظهير ١٩١٣ لإحياء التقاليد البربرية الذي تعزز بإصدار الجنرال ليوتي قرار إلغاء القضاء الشرعي بالمناطق البربرية (١٩١٦)، واكتمل على عهد المقيم العام لوسيان سان في شكل ظهير (مرسوم) صدر في ١٦ مايو ١٩٣٠، مما أدى إلى رد فعل وطني عنيف من قبل المغاربة بربرا وعربا في شكل مظاهرات واحتشادات واضطرابات، وكان شعار المقاومة التي انطلقت من القرويين بفاس في شهر يونيو ١٩٣٠: «اللهم يا لطيف نسألك اللطف فيما جرت به المقادير، ألا تفرق بيننا وبين إخواننا البربر...» وكان له صدى في العالمين العربي والإسلامي الذي تضامن مع الشعب المغربي في مقاومته، مما اضطر سلطة الحماية الفرنسية بالمغرب إلى تجميد الظهير البربري ظاهريا وإن ظلت تصر على تطبيقه عمليا عن طريق المؤسسات التعليمية (الكوليج الفرنسي البربري الذي أنشئ بأزرو سنة ١٩٢٤) والمراكز التبشيرية (٢١٨ مركزا تنتشر في المناطق البربرية سنة ١٩٣٢).

للتعرف على خلفية «الظهير البربري» الذي أصدرته فرنسا في المغرب (١٩٣٠) وما نتج عنه من مواقف ومقاومة، راجع: علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، الرباط، ١٩٨٠، ص. ص ١٤١-١٤٨.



28 وهذا ما أثار قلق واستياء كثير من الفرنسيين ونقمة دعاة البربرية ومنهم ضابط المخابرات الفرنسي الجنرال أندري الذي اعتبر ذلك يتنافى ومصلحة فرنسا وميول السكان. راجع:
Général André, Contribution à l'étude des confréries religieuses musulmanes, Alger, Maison des Livres, 1956, p. 356.

29 Ch. A. Julien, Histoire de l'Algérie contemporaine (1827-1871), Paris, P.U.F., 1964, p. 44.

30 Philippe Antony, Mission des Pères blancs (Tunisie, Algérie, Sahara et Kabylie), Paris, éd. Dillin, 1930, pp. 144 etc.

31 أحمد توفيق المدني، المصدر نفسه، ص ٣٥٠.

32 A. de Tocqueville, d'après K. Filali, op.cit., p. 5.

33 Général André, op.cit., p. 354.

34 محمد الصغير فرج، تاريخ تيزي أوزو منذ نشأتها وحتى سنة ١٩٥٤، ترجمة موسى زمولي، الجزائر، مطبوعات ثالة، ٢٠٠٢، ص ١٨٨، وكذلك:
J. Morizot, Les Kabyles, propos d'un témoin, Paris, pub. du C.H.E.A.M., 1985, pp. 146-147.

35 C. Lacoste-Dujardin, Y. Lacoste, Progrès de l'enseignement et particularismes locaux en Algérie, la revendication des Berbères de Grande Kabylie, in Le Monde Diplomatique, décembre 1980, p. 34.

36 خضعت الجزائر أثناء حكم الإمبراطور نابليون الثالث (١٨٥١-١٨٧٠) إلى حكم عسكري يقوم على مراقبة السكان عن طريق المكاتب العربية (انظر هامش ٥) ويستند إلى مراسيم إمبراطورية لتحديد الملكية (١٨٦٣) والأحوال الشخصية (١٨٦٥) وقد تبنى الحكام العسكريون الفرنسيون للجزائر على عهد نابليون الثالث سياسة بربرية تهدف إلى تقسيم السكان وخلق حالة عداء بينهم. كانت محل نقمة المعمرين الفرنسيين في الجزائر الذين كانوا يتوقون إلى الاستحواذ على كل شيء في الجزائر، مما جعلهم يرون في السياسة البربرية خطرا عليهم. فوقفوا ضدها في مجال الاقتصاد والإدارة بعد سقوط نابليون الثالث وإلغاء الحكم العسكري في الجزائر (١٨٧٠). وهذا ما جعل «السياسة البربرية» تقتصر بعد ذلك على النشاط الثقافي لخلق حلفاء لفرنسا في الجزائر وليس لتمكين مجموعة جزائرية، مهما كان وضعها، لأن تقوم بدور الحليف الطبيعي للفرنسيين في الجزائر.

37 Lhaoussine Mtouggi, op.cit, p. 198.

38 Général André, op.cit, p. 355.

39 انظر هامش ٧.

40 Ch. Brosselard, op.cit.

41 Ch. R. Ageron, Les Algériens musulmans et la France (1871-1919), Paris, P.U.F., 1968, T. 1, p. 291.

42 Henri Basset, Essai sur la littérature des berbères, Thèse de Lettres, Alger, Carbonnel, 1920.

43 Ed. Doutté, E. F. Gautier, op.cit.

44 رشيد الإدريسي، النزوع الأمازيجي وأساطيره المؤسسة (حالة المغرب)، جريدة الشروق اليومية، الجزائر، صفحة الرأي، ٢٩ يوليو ٢٠٠١.

45 جريدة الخبر، الجزائر، ٢٤-٢٥ أبريل ١٩٩١.

46 ناصر الدين سعيدوني، دور الزوايا التربوي والتعليمي في الجزائر العثمانية، نموذج بلاد القبائل، بحوث تاريخ وحضارة الدولة العثمانية (إرسيكا)، إستانبول، ٢٠٠٠، ص. ص ٤١-٨٧.

47 محمد البشير الإبراهيمي، زواوة الكبرى تستمسك بعروة الإسلام الوثقى وتطالب بالرجوع إلى الأصل، جريدة البصائر، الجزائر، السنة الثانية، عدد ٥٩، ٦ ديسمبر ١٩٤٨. نشر في «عيون البصائر»، الجزائر، ١٩٨١، ص ١٤٥ و١٤٦.

48 أحمد توفيق المدني، المصدر نفسه، ص ٢٨.

49 محمد البشير الإبراهيمي، زواوة الكبرى.... المصدر نفسه، ص ١٤٦.

50 ناصر الدين سعيدوني، الجزائر منطلقات وآفاق.... المصدر نفسه، ص ٩١ (التوجه المعادي للعربية والإسلام في السياسة الفرنسية في الجزائر).
- مقران يسلي، الحركة الإصلاحية ببلاد القبائل، أطروحة ماجستير، الجزائر، ١٩٨٣ (غير منشورة)، ص.ص ٣٠٤-٣١٨.

51 سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بنادي الترقي في الجزائر العاصمة، ١٩٣٥، قسنطينة ١٩٣٥ (نشرة مصورة لدار الكتاب، ١٩٨٢)، ص ٢٥٣.

52 ناصر الدين سعيدوني، الجزائر منطلقات وآفاق.... المصدر نفسه، ص. ص. ٢٢٠-٢٢٦ (مكانة مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الحركة الوطنية).

53 محمد البشير الإبراهيمي، اللغة العربية في الجزائر عقيلة حرة، ليس لها ضرة، جريدة البصائر، الجزائر، عدد ٤١، ١٩٤٨، نشرت ضمن عيون البصائر، الجزائر، ١٩٧١، ج ٢، ص ٢٢٣.

54 برنامج منظمة النجم لسنة ١٩٣٣، نشرة خاصة أصدرها حزب الشعب بباريس، ١٩٥١. انظر محمد قنانش، حزب الشعب (١٩٢٧-١٩٣٩) وثائق وشهادات، الجزائر، ١٩٨٥.

55 خطبة الشاعر الوطني مفدي زكريا عضو قيادة منظمة النجم في مؤتمر طلبة شمال افريقيا، القاعة الخلدونية، تونس، ١٩٣٤.

56 خطبة مصالي الحاج زعيم حزب الشعب في ٢ أغسطس ١٩٣٦ بالملعب البلدي لمدينة الجزائر (العناصر)، عن وثائق السيد محمد قنانش، انظر: أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية (١٩٣٠-١٩٤٥)، القاهرة، ١٩٧٥، ج ٣، ص ٢٨٦.

57 عمار اوزيغان، الجهاد الأفضل (دراسات جزائرية مترجمة)، بيروت، دار الطليعة، د.ت.، ص ٢٣.

58 نص نداء الفاتح من نوفمبر ١٩٥٤، منشورات وزارة المجاهدين، الجزائر، ٢٠٠٠.

59 لقد كان لبلاد القبائل (الولاية الثالثة) دور رائد في الثورة الجزائرية بتضحيات رجالها وتجند سكانها، وقد تعرضت لأعمال التدمير والتخريب من طرف الجيش الفرنسي، خاصة أثناء عمليات جومال التي دُمّر فيها حوالي مائة ألف مسكن.

60 P. Balta, Les faits sont têtus, in Le Monde, 26 avril 1980.

61 Ch. R. Ageron, Politique coloniale au Maghreb, 1972, p. 48.

62 من أكثرهم نشاطا وتأثيرا أو. شير المدرس بمدرسة تيزي أوزو ثم باتنة، وكامي ساباتييه قاضي محكمة تيزي أوزو ثم المفوض الإداري لبلدية الأربعاء ناث إراثن، وروتو المفوض الإداري لبلدية جرجرة المختلطة. راجع:
محمد الصغير فرج، المصدر نفسه، ص ١٨٨ و١٨٩.

63 أحمد رضوان شرف الدين، القبائل، عودة الخرافة، جريدة الشروق، الجزائر، عدد ٢٠٤، يوليو ٢٠٠١، ص ٧.

64 Lhaoussine Mtouggi, op.cit, p. 92.

65 Ahmed Taleb, La situation linguistique, in Revue Nedjma, Paris, n° 1, septembre 1981, pp. 16-19.

66 Libération, Paris, 28 février 1992.

67 محمد الصغير زمالي، الحر الحر ولو مسه الضر، جريدة الشعب، الجزائر، ٣ أبريل، ١٩٩٠.
للتعرف أكثر على صلة اللسان البربري باللغة العربية، راجع: عثمان سعدي، عروبة الجزائر عبر التاريخ، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٨٢.

68 Lhaoussine Mtouggi, op.cit, p. 197.

69 محقي حسن، البربرية بين الرهان السياسي والحقيقة الاجتماعية، ترجمة وفاء بن مسعود، جريدة الوقت، عدد ٢٠، ١٨-٢٠ أبريل ١٩٩٤، ص ١٠.

70 Karima Direche-Slimani, Histoire de la question berbère en Algérie, les modalités d'une construction identitaire, in Prologues, Revue maghrébine du Livre, Casablanca, n° 17, 1999, p. 16.

71 Michel Jobert, Maghreb à l'ombre de ses mains, Paris, Alain Michel, 1985, p. 105.

72 Hocine Aït Ahmed, La braise berbère, in Autrement (L'Algérie 20 ans), n_ 38, 1982, p. 155.

73 Kateb Yacine, Abdelkader et l'indépendance algérienne, Conférence à Paris, 24 mai 1947 à la Salle des Savants, Alger, S.N.E.D., 1983.

74 Jeune Afrique, 28 janvier 1987.

75 Revue Nedjma, op.cit., p. 20.

76 La Dépêche quotidienne du 24 septembre 1952.
اعتمادا على محمد الصالح دمبري، محاورات حول الربوة المنسية لمولود معمري، ترجمة حنفي بن عيسى، الأصالة، عدد ١٩٨٩/١٠٢، ص ٤١ و٤٢.

77 Nouvelles littéraires du 17 novembre 1952.
اعتمادا على محمد الصالح دمبري، المصدر نفسه.

78 Maurice Thorez, Le discours d'Alger du 11 février 1939.

79 Omar Ouerdan, La question berbère dans le mouvement national, Alger, éd. Epigraphe, 1993, p. 105.

80 Benyoucef Ben Khadda, Les origines du premier novembre 1954, Alger, éd. Dahlab, 1989, p. 170.

81 Idem, p. 178.

82 Omar Ouerdan, op.cit. D'après : Janet Dorsh Zogaria, The Rise and Fall of the Movement of Messali Hadj in Algeria, quoted by : M. Madi, Langue et identité de la marginalisation à la résistance, in Réflexions, Alger, Casbah éd., 1997, p. 113.

83 Benyoucef Ben Khadda, op.cit., p. 170.

84 أحمد بن نعمان، المصدر نفسه، ص ١٢٢.

85 التقرير العام للجنة المركزية لحركة انتصار الحريات الديموقراطية، نشر يحيى بوعزيز، الأيديولوجيات السياسية للحركة الوطنية الجزائرية من خلال ثلاث وثائق جزائرية، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٨٦، ص ٩٢.

86 Benyoucef Ben Khadda, op.cit., pp. 179-181.

87 أحمد بن نعمان، المصدر نفسه، ص ١٢٦ و١٢٧، عن مذكرات آيت أحمد المنشورة في فرنسا سنة ١٩٨٣.

88 أوزيغان، المصدر نفسه، ص. ٢٤.

M. Madi, op.cit, p. 112.
- Soual, n° 26, 1987, L'Algérie suivra-t-elle ?

89 التقرير العام للجنة المركزية لحركة انتصار الحريات الديموقراطية، المصدر نفسه، ص. ٩٢.

90 أحمد بن مبارك، سياسة التصنيع للصفوة الحاكمة وإطار تكوين المثقفين بالجزائر، المجلة التاريخية المغربية، تونس، عدد ٢٧-٢٨، ١٩٨٢، ص.

91 أحمد بن نعمان، المصدر نفسه، ص ١٣٦ (الأكاديمية البربرية، باريس، ٢٥ يناير ١٩٧٢، الوثيقة رقم ٢، منشور سري بعنوان: أيها البرابر استيقظوا).

92 المصدر السابق، ص ١٣٧ (الأكاديمية البربرية، باريس، ٢٥ يناير ١٩٧٢، الوثيقة رقم ٢، منشور سري بعنوان: أيها البرابر استيقظوا).

93 Algérie Actualité du 23 janvier 1992.

94 Camille Lacoste-Dujardin, Chansons berbères, chansons pour vivre, in His- .94 toire, n°5, octobre 1978.

95 Algérie Actualité du 23 janvier 1992.

96 Mouloud Mameri, Poèmes kabyles anciens, Paris, Maspéro, 1980.

97 Camille Lacoste-Dujardin et Y. Lacoste, Progrès de l'enseignement..., op.cit., pp. 24-33.

98 J. Morizot, op.cit, p. 262.

99 Journal Le Monde, 7 et 15 février 1985.

100 Séminaire de Yakouren, août 1980, Rapport de la commission Culture et Histoire : Quelle identité ? Imedyazen, Paris, premier trimestre 1981, pp. 16-23.
- Morizot, op.cit., pp. 265-266 et 270-271

101 Morizot, op.cit., p. 262.

102 أحمد بن نعمان، المصدر نفسه، ص ١٤٢ (الوثيقة رقم ٦، نداء إلى طلبة الثانويات، أبريل ١٩٨٧).

103 لقد سلمت الأحزاب السياسية الجزائرية في مجملها بشرعية المطالب الثقافية البربرية، باعتبارها وسيلة تجنيد وكسب للأنصار وإن اختلفت في تقييمها وكيفية معالجتها، فتبنت كل مطالبها الأحزاب ذات التوجه العلماني مثل جبهة القوى الاشتراكية بزعامة آيت أحمد، وحزب التجمع من أجل الثقافة والديموقراطية برئاسة سعيد سعدي، وجماعة الشيوعيين المؤطرين في حزب الطليعة الاشتراكية (١٩٦٦) الذي تحول إلى حزب التحدي ثم إلى الحركة الاجتماعية الديموقراطية بزعامة الهاشمي الشريف، وحزب العمال بقيادة لويزة حنون، بالإضافة إلى حركة مجد للمرحوم قاصدي مرباح، والحركة الديموقراطية للتجديد الجزائري للمرحوم سليمان عميرات، والتجمع من أجل الحريات والرفاهية لرزقي محمد، وحزب الأصالة والمعاصرة؛ أما الأحزاب ذات التوجه الوطني والميول الإسلامية فقد اعتبرت الأمازيجية أحد ثوابت الشخصية الجزائرية المتكاملة مع العروبة والإسلام باعتبارها أصالة وتراثا للشعب الجزائري، كما هي الحال بالنسبة إلى جبهة التحرير الوطني وحركة حماس بزعامة محفوظ نحناح وحركة النهضة وحركة الإصلاح...

104 لقد استقطبت حركة العروش اهتمام الصحافة الجزائرية من خلال مواقفها ووجهات نظرها، راجع:
J. Sumprun, Apologie pour l'insurrection algérienne, 30 septembre 2001, éd. de l'Encyclopédie des nuisances, Paris, 2001.

105 Idem.

106 مقابلة لفرحات مهني مع نشرة الحركة البربرية إزوران، انظر:
Izuran, n° 26, mars 2002, pp. 4-5.

107 Info Matin, Paris, 27 septembre 1994, p. 5.

108 El Watan, 20-23 avril 1993.

109 رشيد الإدريسي، المصدر نفسه، الحلقة الثالثة، ٢٩ يوليو ٢٠٠١، ص ٧.

110 سحقي حسن، المصدر نفسه، ص ١٠.

111 انظر هامش ١٠١.

112 محمد زروقي، تصريح لجريدة المساء، الجزائر، ١٦-١٧ ؟ ١٩٨٥.
- آيت موهوب، إقصاء الأمازيجية استعمار آخر، جريدة الوقت، الجزائر، عدد ٢٠، ١٨-٢٤ أبريل ١٩٩٤.

113 Hocine Aït Ahmed, op.cit., p. 156.
انظر كذلك الحوار الذي أجراه محمد برادة مع حسين آيت أحمد ونشره في مجلة جون أفريك، عدد ١٢، ١٩٩٢، ونشره جورج راسي في «الإسلام الجزائري»، بيروت، دار الجديد، ١٩٩٧، ص ٣١.

114 Benyoucef Ben Khadda, op.cit., p. 183.

115 أكلي بلعباس، من هم الأحرار الأمازيغ؟ جريدة الشعب، الجزائر، ٢٢ فبراير ١٩٩٠.

116 بيان مساندة المفهوم السليم للمسألة الأمازيجية، الشروق العربي، الجزائر، عدد ٢٤، ٢٨ ديسمبر-١ أكتوبر ١٩٩٦.

117 بيان لجنة الدفاع عن الوحدة الوطنية وثوابت الأصالة بباتنة موجه إلى رئيس الجمهورية بتاريخ ٢١ نوفمبر ١٩٩٤ (مطبوع على الآلة الكاتبة).

118 انظر هامش ٦.

119 Benyoucef Ben Khadda, op.cit., p. 170.

120 M. Jobert, op.cit., p. 103.

121 Général André, op.cit., p. 352.
122 Hocine Aït Ahmed, op.cit., p. 154.
123 جون بول ماري، الحرب على جبهتين، جريدة الوقت، الجزائر، عدد ٢٠، ١٨-٢٤ أبريل ١٩٩٤، ص ١٢.
124 انظر هامش ٣.
125 جريدة الخبر، الجزائر، ٢٤-٢٥ أبريل ١٩٩١.
126 رسالة من سكان الأوراس إلى رئيس الجمهورية الجزائرية حول موضوع ملتقى الأمازيغية، ١٢ مايو ١٩٩٦ (مطبوعة على الآلة الكاتبة).
127 أحمد بن مبارك، المصدر نفسه، ص ٢٢٦.
128 M. Dahmani, L'Algérie, légitimité historique et continuité politique, Paris, 1979, p. 156.
129 K. Direche-Slimani, op.cit., p. 19.
130 أحمد رضوان شرف الدين، المصدر نفسه.



آفاق نقدية



- تيار الوعي السياسي في المسرح الألماني
- طبيعة مفهوم الكلام ووظيفته
- حضور المتلقي في تأليف ابن قتيبة مقدمة «عيون الأخبار» نموذجاً